

سلسلة ثمن الحرية
تأليف السيدة: صالحي شريفة
يوميات
أشبال الثورة
11 ديسمبر 1960
MUSULMANE

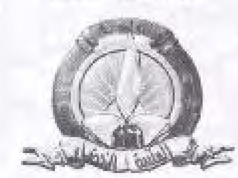
سلسلة ثمن الحرية

يوميات أشبال الثورة

11 ديسمبر 1960م

تأليف: السيدة صالحي شريفة





المكتبة الخضراء
للطباعة والنشر والتوزيع
11 شارع الزواوة الشراقة الجزائر
www.bverte.net

ردمك: 978-9947-25-309-0
رقم الإيداع: 2012-4395



...وَفي اليَوْم المُوَالي، وبَعْدَ العَشَاءِ اجْتَمَعَتِ العَائِلَةُ كَالعَادَةِ في غُرْفَةِ المَعِيشَةِ، جَاءَتِ الأُمُّ بِصِينِيَّةِ الشَّاي، فَطَلَبَتْ كامِيلْيا مِنْ وَالِدِهَا عَلِيّ الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ إِلَى جَانِبِ جَدَّتِهَا جَمِيلَة أَنْ يُوَاصِلَ لَهَا سَرْدَ الحِكَايَةِ، ثُمَّ أَضَافَتْ: وَأَنْتِ يا أُمِّي، اجْلِسِي مَعَنَا، لِتُشَارِكِي جَدَّتِي، وَأَبِي اسْتِرْجَاعَ الذِّكْرَيَاتِ.

قَالَتِ الأُمُّ: سَأَجْلِسُ مَعَكُمْ، يَا بُنَيَّتِي، كَمُسْتَمِعَةٍ فَقَطْ، أَمَّا المُشَارَكَةُ فَأَنَا لا أَذْكُرُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الحِقْبَةِ لِصِغَرِ سِنِّي.

تَدَخَّلَتِ الجَدَّةُ قَائِلَةً: حَقًّا، يَا كَامِيليا، كَانَتْ أُمُّكِ فِي ذَلِكَ العَهْدِ صَبِيَّةً لاَ يَتَعَدَّى عُمُرُهَا أَرْبَعَ سَنَوَاتٍ، وَكَانَ بَيْتُ أُسْرَتِهَا مُجَاوِرًا لِبَيْتِنَا، مَازَالَتْ صُورَتُهَا عَالِقَةً بِذِهْنِي وَهِيَ تَحْتَضِنُ دُمْيَتَهَا، وَتُحَاوِرُهَا كَشَخْصٍ عَاقِلٍ، وَإِذَا مَا سَمِعَتْ

أَزِيزَ الشَّاحِنَاتِ، أَوْ شَاهَدَتْ جَيْشَ الاحْتِلاَلِ يَقْتَرِبُ مِنَ الحَارَةِ، تُكْثِرُ مِنَ الصُّرَاخِ وَالبُكَاءِ.

ضَحِكَ الأَبُ، وَقَالَ: لَقَدْ كَانَتْ أُمُّكِ، يَا كَامِيلْيَا، بِمَثَابَةِ صَفَّارَةِ الإِنْذَارِ.

الجَدَّةُ: فِعْلاً، كُنَّا نَأْخُذُ احْتِيَاطَنَا عِنْدَمَا نَسْمَعُهَا تَبْكِي بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ...

كاميليا: أَكُنْتِ تَخَافِينَ مِنْهُمْ، يَا أُمِّي؟

رَدَّتِ الأُمُّ عَلَى ابْنَتِهَا كاميليا وَهِيَ تَضْحَكُ: قِيلَ لِي، كُنْتُ أَرْتَجِفُ مِنْهُمْ كَارْتِجَافِ الوَرَقَةِ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ.

كاميليا: وَلِمَاذَا، يَا أُمِّي؟ أَكَانُوا يُؤْذُونَ الصِّغَارَ؟

الأُمُّ: إِنَّهُمْ غَيْرُ مُؤْتَمَنِينَ، يَا بُنَيَّتِي، كُلُّ شَيْءٍ كَانَ مُتَوَقَّعًا مِنْهُمْ، وَلِمَ لاَ؟... يُحْكَى عَنْ تَصَرُّفَاتِهِمْ أَنَّهَا لاَ تَخْتَلِفُ عَنِ المُتَوَحِّشِينَ، تَصَوَّرِي، يَا بُنَيَّتِي،

حَتَّى لُعَبُ الأَطْفَالِ لَمْ تَسْلَمْ مِنْ هَمَجِيَّتِهِمْ، كَانُوا يَدْهَسُونَهَا بِأَحْذِيَتِهِمُ الثَّقِيلَةِ، وَيُمَزِّقُونَهَا بِخَنَاجِرِهِمْ، فَكَيْفَ لاَ أَخَافُ مِنْهُمْ؟ فَمَنْظَرُهُمْ مُفْزِعٌ وَمَهُولٌ، وَصَوْتُهُمْ مُرْعِبٌ، وَأَعْمَالُهُمْ وَحْشِيَّةٌ.

ضَحِكَتْ كَامِيلْيَا، وَسَأَلَتْ أُمَّهَا مُسْتَغْرِبَةً: أَكَانَتْ لَدَيْكِ لُعَبٌ؟

الأُمُّ: أَجَلْ، يَا حَبِيبَتِي.

كاميليا: أَهِيَ جَمِيلَةٌ، يَا أُمِّي؟

الأمّ: لَمْ تَكُنْ جَمِيلَةً كَتِلْكَ الدُّمَى الَّتِي كَانَتْ تُعْرَضُ لِلْبَيْعِ فِي وَاجِهَاتِ الدَّكَاكِينِ، أَوِ الَّتِي كُنَّا نُشَاهِدُهَا عِنْدَ أَبْنَاءِ المُعَمِّرِينَ.. وَلَكِنَّهَا لُعَبٌ عَزِيزَةٌ وَغَالِيَةٌ عِنْدِي، لأَنَّهَا مِنْ صُنْعِ يَدِي.

كاميليا: أَحَقًّا، يَا أُمِّي!... أَكُنْتِ تَصْنَعِينَ الدُّمَى، وَاللُّعَبَ؟!

الأمُّ: أَجلْ، يَا عَزِيزَتِي... فَظُرُوفُنَا المَادِيَّةُ كَانَتْ لاَ تَسْمَحُ لَنَا بِشِرَاءِ الدُّمَى وَاللُّعَب.

الجَدَّةُ: لاَ تَتَعَجَّبِي، يَا بُنَيَّتِي، فَالحَاجَةُ أُمُّ الاخْتِرَاعِ... فَالطِّفْلُ يَبْقَى طِفْلاً يَبْحَثُ عَنْ وَسَائِلِ اللَّعِبِ، والتَّسْلِيَةِ، حَتَّى فِي أَسْوَءِ الأَحْوَالِ.

الأبُ: أجَلْ، يا بُنَيَّتِي، الأَطْفَالُ فِي ذَلِكَ العَهْدِ، كُلُّهُمْ أَطْفَالٌ مَوْهُوبُونَ، بَارِعُونَ، يُبْدِعُونَ، وَيَبْتَكِرُونَ... فَكَمْ مِنْ عُلْبَةٍ صَفِيحٍ حَوَّلُوهَا إِلَى أَدَاةٍ مُوسِيقِيَّةٍ، تَنْبَعِثُ مِنْهَا أَنَغَامٌ سِحْرِيَّةٌ، وَمِنْ فَضَلاَتِ القُمَاشِ، تَصْنَعُ الفَتَيَاتُ دُمًى فِي مُنْتَهَى الجَمَالِ، وَمِنَ الطِّينِ نُشَكِّلُ أَشْيَاءَ جَمِيلَةً، حَسْبَ مَا يُمْلِيهِ عَلَيْنَا خَيَالُنَا، كَمَا كُنَّا نَرْتَجِلُ المَسْرَحِيَّاتِ، وَنُؤَدِّي الأَدْوَارَ بِبَرَاعَةٍ مُدْهِشَةٍ.

الأمُّ: حَقًّا، كُنَّا أَطْفَالاً مَوْهُوبِينَ... لاَ نَمْلِكُ

نُقُودًا لِشِرَاءِ اللُّعَبِ أَوِ الالْتِحَاقِ بِمَعَاهِدِ الفُنُونِ، وَلَكِنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْنَا بِمَوَاهِبَ عَقْلِيَّةٍ، وَقُدُرَاتٍ بَارِعَةٍ، فِي شَتَّى المَجَالاَتِ.

كاميليا: حَقًّا، إِنَّ طُفُولَتَكُمْ طُفُولَةٌ مُعَذَّبَةٌ، وَمَحْرُومَةٌ، حَرَمَتْكُمُ الحَرْبُ مِنْ أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ، يَا أُمِّي... وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ تَيْأَسُوا، وَلَمْ تَسْتَسْلِمُوا لِلحِرْمَانِ.

الأمُّ: أجَلْ، يَا بُنَيَّتِي، جِيلُنَا جِيلٌ عِصَامِيٌّ تَخَطَّى العَقَبَاتِ بِصبْرٍ، وَثَبَاتٍ، بَلْ جَعَلَ مِنْ كُلِّ عَقَبَةٍ عَتَبَةً، وَهَكَذَا تَغَلَّبْنَا عَلَى مَآسِينَا، وَلَمْ يَعْرِفِ اليَأْسُ طَرِيقًا إِلَى نُفُوسِنَا، وَلَمْ نَتْرُكِ الحُزْنَ يُسَيْطِرُ عَلَى قُلُوبِنَا، وَيَسْتَوْلِي عَلَيْهَا.

كاميليا: شُكْرًا لَكَ، يَا مَامَا، لَقَدْ سَاهَمْتِ بِشَطْرٍ وَفِيرٍ، إِنَّهُ مَوْضُوعٌ بَالَغُ الأَهَمِّيَّةِ، لاَ يُسْتَهَانُ بِهِ، فَسَوْفَ نَعُودُ إِلَيْهِ عِنْدَمَا تُنْهِي جَدَّتِي، وَأَبِي،

سَرْدَ ذِكْرَيَاتِهِمَا.

الْتَفَتَتْ كَامِيلْيَا نَحْوَ وَالِدِهَا، وَقَالَتْ: ...هَيَّا يَا أَبِي، لِنَبْدَأْ مِنْ حَيْثُ تَوَقَّفْنَا البَارِحَةَ.

الأَبُ: ذَكِّرِينِي، يَا بُنَيَّتِي، فَالنِّسْيَانُ أَصْبَحَ عِنْدِي عَادَةً.

كاميليا: أَظُنُّ، يَا أَبِي، أَنَّكَ تَوَقَّفْتَ البَارِحَةَ عِنْدَ قَوْلِكَ: «عِنْدَمَا دَقَّ الجَرَسُ، وَدَخَلَ التَّلَامِيذُ إِلَى الأَقْسَام...»

الأُمُّ: أَجَلْ يَا حَبِيبَتِي، وَهُوَ كَذَلِكَ.

الْتَفَتَ الأَبُ إِلَى أُمِّهِ، وَهُوَ يَسْتَحْضِرُ تِلْكَ السَّنَوَاتِ بِحُرْقَةٍ تَارَةً، وَبِالصَّمْتِ وَالدُّمُوعِ تَارَةً أُخْرَى... ثُمَّ قَالَ: اسْتَمَرَّ الحَالُ عَلَى هَذِهِ الوَتِيرَةِ... المَدْرَسَةُ مَفْتُوحَةٌ لِكُلِّ مَنْ لَهُ رَغْبَةٌ فِي تَعَلُّمِ لُغَةِ وَطَنِهِ... وَالإِقْبَالُ عَلَيْهَا كَانَ فِي تَزَايُدٍ مُسْتَمِرٍّ... فَانْتَبَهَ العَدُوُّ إِلَيْهَا، وَصَارَ يُضَايِقُنَا،

وَيَسْتَفِزُّنَا بِزِيَارَاتِهِ الفُجَائِيَّةِ، وَذَاتَ يَوْمٍ، كَانَ فِيهِ الجَوُّ رَبِيعِيًّا، نَوَافِذُ القِسْمِ مَفْتُوحَةٌ، وَزَقْزَقَةُ العَصَافِيرِ تَمْلَأُ المَكَانَ، وَنَحْنُ مُنْهَمِكُونَ فِي حَلِّ العَمَلِيَّاتِ الحِسَابِيَّةِ، إِذَا بِقَرْعٍ قَوِيٍّ عَلَى البَابِ، ارْتَبَكْنَا ارْتِبَاكًا شَدِيدًا، وَتَوَقَّفْنَا عَنِ العَمَلِ، وَجَمَدْنَا فِي أَمَاكِنِنَا نَنْتَظِرُ.

مَسَحَ المُعَلِّمُ السَّبُّورَةَ بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ، وَأَمَرَنَا بِإِخْرَاجِ المَصَاحِفِ...

فُتِحَ البَابُ الكَبِيرُ، فَدَخَلَتِ الدَّوْرِيَّةُ العَسْكَرِيَّةُ بِهَمَجِيَّةٍ... صَخَبٌ وَلَغَطٌ، وَقَعْقَعَةٌ وَوَقْعُ أَقْدَامٍ...

سَمِعْنَا المُدِيرَ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِمْ بِصَوْتٍ هَادِئٍ رَصِينٍ، وَالعَسْكَرِيُّ يَرُدُّ عَلَيْهِ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ، ثُمَّ سَمِعْنَا وَقْعَ أَقْدَامِهِمْ تَقْتَرِبُ مِنَّا...

تَمْتَمَ المُعَلِّمُ، يَدْعُو اللهَ وَيُرَدِّدُ: يَا سَتَّارُ اسْتُرْنَا

وَاصْرِفْهُمْ عَنَّا، يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ... هَاهُمْ قَادِمُونَ إِلَيْنَا، فَمَاذَا يُرِيدُونَ مِنَّا، يَا تُرَى؟

دَفَعَ العَسْكَرِيُّ بَابَ القِسْمِ بِرَكْلَةٍ عَنْجَهِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، فَفُتِحَ البَابُ بِقُوَّةٍ فَوَقَفَ عِنْدَ العَتَبَةِ، يَنْظُرُ إِلَيْنَا نَظَرَاتٍ مَاكِرَةً فِيهَا بُغْضٌ، وَحِقْدٌ، وَكَرَاهِيَّةٌ، ثُمَّ سَأَلَ المُعَلِّمَ بِعَنْجَهِيَّةٍ: لِمَ لاَ يَذْهَبُ هَؤُلاَءِ الأَطْفَالُ إِلى المَدْرَسَةِ الفَرَنْسِيَّةِ؟

رَدَّ عَلَيْهِ المُعَلِّمُ بِلَبَاقَةٍ: سَيِّدِي، هَؤُلاَءِ الأَطْفَالُ، تَجَاوَزَ سِنُّهُمْ سِنَّ الدُّخُولِ إِلى المَدْرَسَةِ، وَلَمْ يُسْمَحْ لَهُمْ بِالدُّخُولِ إِلى المَدَارِسِ الفَرَنْسِيَّةِ، جَعَلْنَاهُمْ فِي هَذَا المَكَانِ بَدَلَ بَقَائِهِمْ فِي الشَّوَارِعِ، يَتَسَكَّعُونَ خَوْفًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يُصْبِحُوا خَطَرًا عَلى المُجْتَمَعِ.

العَسْكَرِيُّ: مُمْتَازٌ، فِكْرَةٌ جَيِّدَةٌ، صَحِيحٌ. وَرَاحَ يَفْحَصُ بِبَصَرِهِ وُجُوهَ الأَطْفَالِ، وَالقَاعَةَ، كَأَنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ مَفْقُودٍ.

خَرَجَتِ الدَّوْرِيَّةُ مِنَ المَدْرَسَةِ، وَأَقْفَلَ المُدِيرُ البَابَ، فَعُدْنَا لِمُوَاصَلَةِ دَرْسِ الحِسَابِ.

مَرَّتِ الأَيَّامُ كُلُّهَا مُتَشَابِهَةً... يَهْجُمُونَ عَلى المَدْرَسَةِ كَالفِيلَةِ، يُثِيرُونَ الفَوْضَى وَالجَلَبَةَ، وَالرُّعْبَ، وَيُهِينُونَ المُعَلِّمَ أَمَامَ التَّلاَمِيذِ، وَكَثِيرًا مَا يَطْرَحُونَ أَسْئِلَةً عَلَى الأَطْفَالِ... وَهِيَ أَسْئِلَةٌ جِدِّيَّةٌ مَخْلُوطَةٌ بِالهَزْلِ... وَذَاتَ يَوْمٍ دَخَلَ قَائِدُهُمْ إِلى القِسْمِ، بَيْنَمَا بَقِيَ الجُنُودُ الآخَرُونَ فِي السَّاحَةِ، يَجُولُونَ وَيَصُولُونَ، ضَارِبِينَ النِّظَامَ المَدْرَسِيَّ عَرْضَ الحَائِطِ، غَيْرَ مُبَالِينَ بِحُرْمَةِ المَكَانِ، وَلاَ مُقَدِّرِينَ قِيمَةَ الوَقْتِ.

جَلَسَ قَائِدُهُمْ فِي مَكَانِ المُعَلِّمِ، وَوَضَعَ رَشَّاشَهُ عَلَى المَكْتَبِ، وَهُوَ يَبْتَسِمُ فِي وُجُوهِنَا، أَرَادَ أَنْ يُلَقِّنَنَا دَرْسًا فِي المَحَبَّةِ وَالأُخُوَّةِ، زَاعِمًا

أَنَّ فَرَنْسَا تُحِبُّ الأَطْفَالَ... أَثْنَاءَ حَدِيثِهِ كَانَتْ أَبْصَارُنَا مَشْدُودَةً إِلَى رَشَّاشِهِ، وَإِلَى الخَرَاطِيشِ

الرَّصَاصِيَّةِ، وَالقَذَائِفِ اليَدَوِيَّةِ، المُدَجَّجِ بِهَا.

وَقَبْلَ مُغَادَرَتِهِم المَدْرَسَةَ، وَزَّعُوا عَلَيْنَا قِطَعًا مِنَ الخُبْزِ، وَأَعْمِدَةً مِنَ الشُّكُولاَطَة، احْتَفَظْنَا بِهَا فِي جُيُوبِنَا رَيْثَمَا نَجِدُ الفُرْصَةَ لِرَمْيِهَا.

خَزَرَنَا أَحَدُهُمْ مُسْتَغْرِبًا، وَقَالَ: لاَ تَحْتَفِظُوا بالشُّكُولاَطَة فِي جُيُوبِكُمْ، إِنَّهَا لَذِيذَةٌ، أَجَلْ، إِنَّهَا لَذِيذَةٌ جِدًّا، وَمُفِيدَةٌ للأَطْفَالِ، هَيَّا يَا أَطْفَالُ، كُلُوا الشُّكُولاَطَة، اسْتَمْتِعُوا بِحَلاَوَتِهَا، وَنَكْهَتِهَا الجَيِّدَةِ.

سَكَتْنَا جَمِيعًا، وَلَمْ نُعِرْ كَلاَمَهُ اهْتِمَامًا؛ يَا سُبْحَانَ الله! مَنْ وَحَّدَ مَشَاعِرَنَا؟ مَنْ عَلَّمَنَا هَذَا؟ رَغْمَ تَفَاوُتِ أَعْمَارِنَا كَانَتْ مَشَاعِرُنَا مُوَحَّدَةً وَنُفُورُنَا مِمَّا يُقَدِّمُهُ لَنَا المُحْتَلُّ مُتَأَصِّلاً.

ثُمَّ رَاحَ أَحَدُهُمْ يَتَوَدَّدُ إِلَيْنَا، وَيَقْتَرِبُ مِنَّا، وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى سِلاَحِهِ وَيَقُولُ: أَنَا أُحِبُّ الأَطْفَالَ...

أُحِبُّهُمْ كَثِيرًا... فَمَنْ مِنْكُمْ يُرِيدُ أَنْ أُعِيرَهُ سِلاَحِي؟

سَكَتَ الجَمِيعُ سُكُوتًا مُطْبَقًا.

قَالَ مُسْتَغْرِبًا: هَذَا أَمْرٌ عَجِيبٌ!... الأَطْفَالُ كُلُّهُمْ يَوَدُّونَ أَنْ تَكُونَ لَدَيْهِمْ بَنَادِقُ، أَوْ مُسَدَّسَاتٌ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟... هَيَّا تَكَلَّمُوا، يَا أَحِبَّائِي... إِنِّي أَنْتَظِرُ مِنْكُمْ الإِجَابَةَ، يَا شُجْعَانَ، وَيَا شُطَّارَ.

فَلَمَّا لَمْ يَنْبِسْ أَحَدٌ بِبِنْتِ شَفَةٍ أَرْدَفَ قَائِلاً:

آ، فَهِمْتُ، أَنْتُمْ غَيْرُ مُحْتَاجِينَ إِلَيْهَا؛ لأَنَّ لَدَيْكُمْ مِثْلَهَا فِي البَيْتِ، وَلَرُبَّمَا أَحْسَنَ مِنْهَا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ هَيَّا، يَا أَصْدِقَاءُ، مَنْ لَهُ وَاحِدَةٌ مِثْلُهَا يَرْفَعْ إِصْبَعَهُ.

سَكَتَ الجَمِيعُ إِلاَّ طِفْلاً وَاحِدًا رَفَعَ إِصْبَعَهُ.

فَابْتَسَمَ العَسْكَرِيُّ ابْتِسَامَةً خَبِيثَةً، وأَشَارَ بِسَبَّابَتِهِ إِلَيْهِ وَقَالَ:

تَعَالَ إِلَيَّ، يَا شُجَاعُ... لاَ تَخَفْ، أَنْتَ وَأَنَا صِرْنَا صَدِيقَيْنِ، أَمَّا أَنْتُمْ، يَا أَطْفَالُ، فَلَسْتُ رَاضِيًا عَنْكُمْ.

اقْتَرَبَ مِنْهُ الطِّفْلُ السَّاذِجُ، وَالابْتِسَامَةُ عَلَى شَفَتَيْهِ، فَرَاحَ العَسْكَرِيُّ يَسْتَنْطِقُهُ، وَيَسْتَدْرِجُهُ، بِحَدِيثِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا. كَانَ حَدِيثُ العَسْكَرِيِّ خَلِيطًا مِنَ الفَرَنْسِيَّةِ، وَالعَرَبِيَّةِ، وَمَعَ ذَلِكَ كُنَّا نَفْهَمُ مَا يَقُولُ.

العَسْكَرِيُّ: أَنْتَ طِفْلٌ ظَرِيفٌ، وَوَسِيمٌ، وَيَظْهَرُ أَنَّكَ شَاطِرٌ.

ابْتَسَمَ الطِّفْلُ، وَسَكَتَ.

العَسْكَرِيُّ: ما اسْمُكَ؟

الطِّفْلُ: اسْمِي عَبْدُ النَّاصِرِ.

العَسْكَرِيُّ: عَبْدُ النَّاصِرِ اسْمٌ جَمِيلٌ.

العَسْكَرِيُّ: مَا اسْمُ وَالِدِكَ؟

الطِّفْلُ: عَبْدُ الفَتَّاحِ.

العَسْكَرِيّ: أَيْنَ يَعْمَلُ وَالِدُكَ؟

سَكَتَ الطِّفْلُ وَلَمْ يَرُدَّ.

العَسْكَرِيّ: لِمَاذَا لاَ تَرُدُّ عَلَيَّ؟ أَغَيَّرْتَ رَأْيَكَ، أَمْ هَجَرْتَنِي؟

هَزَّ الطِّفْلُ رَأْسَهُ بِإِشَارَةِ لاَ.

العَسْكَرِيّ: آ، فَهِمْتُ...

العَسْكَرِيّ: أَيْنَ يُخْفِي وَالِدُكَ مُسَدَّسَهُ؟

الطِّفْلُ: أَنَا الَّذِي أُخْفِيهِ تَحْتَ سَرِيرِي، عِنْدَمَا يَزُورُنَا ابْنُ خَالَتِي.

تَأَكَّدَ العَسْكَرِيُّ مِنْ سَذَاجَةِ الطِّفْلِ وَبَرَاءَتِهِ، فَصَفَعَهُ، وَأَخْرَجَهُ مِنَ القِسْمِ، وَعِنْدَ البَابِ رَكَلَهُ رَكْلَةً قَوِيَّةً، فَانْقَلَبَ الطِّفْلُ عَلَى عَقِبَيْهِ يَتَدَحْرَجُ

مِنَ السُّلَّمِ...

حَدَثَ ذَاتَ يَوْمٍ صَبَاحًا وَكَانَ الطَّقْسُ بَارِدًا، وَالتَّلاَمِيذُ مُجْتَمِعُونَ عِنْدَ بَابِ المَدْرَسَةِ، يَنْتَظِرُونَ مِنَ الحَارِسِ أَنْ يَفْتَحَ البَابَ كَالعَادَةِ... فَاتَ الوَقْتُ وَالحَارِسُ لَمْ يَفْتَحِ البَابَ، بَقِينَا نَنْتَظِرُ، وَنَنْتَظِرُ... فَإِذَا بِإِحْدَى الزَّمِيلاَتِ مُقْبِلَةٌ وَهِيَ تَنْتَحِبُ. دُهِشَ الجَمِيعُ، فَتَحَلَّقْنَا حَوْلَهَا لِنَسْأَلَهَا؛ فَقَالَتْ وَالدَّمْعُ يَخْنُقُهَا: عُودُوا إِلَى دِيَارِكُمْ؛ فَالمَدْرَسَةُ مُغْلَقَةٌ، يَا أَصْدِقَاءُ، وَلَنْ تُفْتَحَ أَبْوَابُهَا... لَقَدْ زُجَّ بِالمُعَلِّمِينَ وَالمُدِيرِ -وَحَتَّى فُلاَنَةٍ... وَفُلاَنٍ... (مِنَ التَّلاَمِيذِ)- فِي السِّجْنِ؛ فَلَمْ تَعُدْ لَنَا مَدْرَسَةٌ، يَا أَصْدِقَاءُ، فَبَكَيْنَا جَمِيعًا بُكَاءً مُرًّا، حَتَّى عَلاَ نَحِيبُنَا.. ثُمَّ عُدْنَا أَدْرَاجَنَا...

وَمَا هِيَ إِلاَّ أَيَّامٌ حَتَّى أَتَانَا اليَقِينُ أَنَّ الفَرِيقَ المَدْرَسِيَّ اسْتُشْهِدَ... فَأُغْلِقَ المَسْجِدُ وَالمَدْرَسَةُ

بِالأَسْلاَكِ الشَّائِكَةِ، لأَجَلٍ غَيْرِ مُسَمًّى...

مَرَّتْ أَيَّامٌ وَأَيَّامٌ، وَتَلَتْهَا أَسَابِيعُ، وَبَعْدَ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الزَّمَنِ فَتَحَتِ المَدْرَسَةُ أَبْوَابَهَا، وَاسْتَقْبَلَتْ أَبْنَاءَهَا، وَبِاجْتِهَادٍ مِن أَوْلِيَاءِ التَّلاَمِيذِ اخْتَارُوا لَنَا تِلْمِيذَةً نَجِيبَةً، تَتَمَيَّزُ عَنَّا بِمُسْتَوَاهَا الدِّرَاسِيِّ الجَيِّدِ، فَصَارَتْ مُعَلِّمَةً لَنَا وَنَحْنُ تَلاَمِيذُهَا، اسْمُهَا فَاطِمَة...

وَاسْتَمَرَّتِ الحَيَاةُ عَلَى نَفْسِ الوَتِيرَةِ، نَذْهَبُ لِنَقْرَأَ، وَنَتَعَلَّمَ تَحْتَ ضَغْطٍ قَوِيٍّ، وَخَوْفٍ كَبِيرٍ، فَصِرْنَا نَنْتَظِرُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ مَا لاَ يُحْمَدُ عُقْبَاهُ... آذَانُنَا دَائِمًا مُرْهَفَةٌ، وَأَبْصَارُنَا شَاخِصَةٌ، وَقُلُوبُنَا وَاجِفَةٌ، وَأَخِيرًا صَمَّمَ الاسْتِدْمَارُ عَلَى مُزَاحَمَتِنَا فِي المَدْرَسَةِ، فَاحْتَلَّ قِسْمًا فِي الطَّابِقِ العُلْوِيِّ يُدَرِّسُ فِيهِ عَسْكَرِيٌّ اللُّغَةَ الفَرَنْسِيَّةَ... اسْمُهُ «جِيقِي» مِنْ ذَوِي القُبَّعَاتِ الحَمْرَاءِ؛ طَوِيلُ القَامَةِ، نَحِيفُ

الجِسْمِ، بَشَرَتُهُ حَمْرَاءُ، وَعَيْنَاهُ زَرْقَاوَانِ ثَاقِبَتَانِ يَتَطَايَرُ مِنْهُمَا الشَّرَرُ، كَثِيرُ الحَرَكَةِ، يُدَرِّسُ وَيَدُهُ عَلَى رَشَّاشِهِ، وَكَانَ لِهَذَا العَسْكَرِيِّ سُلْطَةٌ مُطْلَقَةٌ فِي المَدْرَسَةِ، يَأْمُرُ وَيَنْهَى، وَالوَيْلُ لِمَنْ يُبْدِي رَأْيًا، أَوْ يُخَالِفُ أَمْرَهُ، وَالوَيْلُ لِمَنْ يَتَغَيَّبُ عَنْ دُرُوسِهِ، أَوْ يَتَأَخَّرُ فِي حِصَّتِهِ... وَكَانَ ذَا صَوْلَةٍ وَحَوْلٍ...

...وَرَغْمَ الخَوْفِ، وَالتَّرْهِيبِ، وَالغِيَابِ المُتَوَاصِلِ لِلْمُعَلِّمِينَ وَالانْقِطَاعِ المُسْتَمِرِّ لِلْمَدْرَسَةِ، جَرَّاءَ الاغْتِيَالاَتِ، وَالاعْتِقَالاَتِ، تَعَلَّمْتُ فِيهَا أَشْيَاءَ كَثِيرَةً، تَعَلَّمْتُ القِرَاءَةَ، وَالكِتَابَةَ، كَمَا تَعَلَّمْتُ تَرْكِيبَ الكَلِمَاتِ، وَالجُمَلَ، وَحَفِظْتُ قَصَائِدَ مِنَ الأَشْعَارِ، وَكَذَلِكَ سُوَرًا قُرْآنِيَّةً، لِذَلِكَ كَانَ المُعَلِّمُ يُحِبُّنِي، وَيُثْنِي عَلَيَّ.

وَذَاتَ يَوْمٍ وَأَنَا خَارِجٌ مِنَ المَدْرَسَةِ،

وَنَشْوَةُ الفَرَحِ تَهُزُّنِي، وَالسَّعَادَةُ تَسْرِي فِي عُرُوقِي، لِإِطْرَاءِ المُعَلِّمِ إِيَّايَ، الْتَقَيْتُ فِي طَرِيقِي بِعَمِّي أَحْمَد، فَوَدِدْتُ إِبْلاَغَهُ بِالمُسْتَوَى التَّعْلِيمِي الَّذِي وَصَلْتُ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُعِرْنِي اهْتِمَامَهُ؛ لأَنَّهُ كَانَ مُسْتَعْجِلاً، شَارِدَ الذِّهْنِ... وَكَانَ هَذَا لاَ يَغِيبُ عَنِّي. فَهِمْتُ فِي الحِينِ أَنَّهُ فِي مُهِمَّةٍ فِدَائِيَّةٍ، خَرَجَ لِتَنْفِيذِهَا... فِعْلاً كَانَ فِي حَوْزَةِ عَمِّي أَحْمَدَ قُنْبُلَةٌ مَوْقُوتَةٌ، يُرِيدُ وَضْعَهَا فِي حَانَةٍ، كَانَ يَرْتَادُهَا عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ سُلُطَاتِ المُحْتَلِّينَ، وَعُمَلاَئِهِمْ، وَكَانَ لاَ بُدَّ مِنْ تَنْفِيذِ العَمَلِيَّةِ عَاجِلاً، وَفِي أَسْرَعِ وَقْتٍ... لَكِنْ للأَسَفِ الشَّدِيدِ تَجْرِي الرِّيَاحُ بِمَا لاَ تَشْتَهِي السُّفُنُ، لِحُسْنِ حَظِّ صَاحِبِ الحَانَةِ، وَرُوَّادِهَا مَرَّتْ مِنْ هُنَاكَ شَاحِنَاتٌ تَنْقُلُ جَيْشَ العَدُوِّ، كَانَ جَيْشًا جَرَّارًا لَيْسَ لِبِدَايَتِهِ نِهَايَةٌ

عَرْقَلَ حَرَكَةَ عُبُورِ الطَّرِيقِ... فَلَمْ يَبْقَ أَمَامَ عَمِّي أَحْمَد مُتَّسَعٌ مِنَ الْوَقْتِ، وَالتَّفْكِيرِ،



فَأَخْرَجَ القُنْبُلَةَ، وَقَبْلَ أَنْ يَقْذِفَهَا إلى شَاحِنَةٍ مِنَ الشَّاحِنَاتِ العَسْكَرِيَّةِ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: عَلَيَّ وَعَلَى أَعْدَائِي، اللهُ أَكْبَرُ... اللهُ أَكْبَرُ... تَحْيَا الجَزَائِرُ...

فَمَا إِنْ تَلَفَّظَ بِالحَرْفِ الأَخِيرِ، حَتَّى انْهَالَ عَلَيْهِ وَابِلٌ مِنْ رَصَاصِ العَدُوِّ، وَقَبْلَ أَنْ يَسْقُطَ عَلَى الأَرْضِ شَهِيدًا، ارْتَسَمَتْ بَسْمَةٌ جَمِيلَةٌ عَلَى شَفَتَيْهِ، وَهُوَ يُرَدِّدُ: تَحْيَا الجَزَائِرُ حُرَّةً، مُسْلِمَةً، مُسْتَقِلَّةً.

وَقَعَ ارْتِبَاكٌ كَبِيرٌ، فَهَرَبَ النَّاسُ فِي كُلِّ الاتِّجَاهَاتِ... أَفْرَغَ جَيْشُ العَدُوِّ جَامَ غَضَبِهِ عَلَى كُلِّ مَنْ صَادَفَهُ فِي طَرِيقِهِ مِنَ الجَزَائِرِيِّينَ بِدُونِ هَوَادَةٍ، وَهُوَ يَتَفَنَّنُ فِي أَسَالِيبِهِ الهَمَجِيَّةِ المَعْرُوفِ بِهَا، فَسَقَطَ الكَثِيرُ مِنَ الضَّحَايَا...

عُدْتُ إلى الكُوخِ، تَارِكًا وَرَائِي، أَبًا رَؤُوفًا،

وَصَدِيقًا حَمِيمًا، وَبَطَلاً مِغْوَارًا، وَأَسَدًا هَصُورًا، مُسَجًّى بِالدِّمَاءِ، عُدْتُ إلى البَيْتِ كَئِيبًا، مُتَأَلِّمًا، فَجَثَمَ عَلَى صَدْرِي حُزْنٌ عَمِيقٌ.

سَأَلَتْنِي أُمِّي: أَرَاكَ يَا بُنَيَّ مُغْتَمًّا فَمَا الأَمْرُ؟

أَجَبْتُهَا: اشْتَدَّتْ عَلَيْنَا المِحَنُ، وَطَالَ العَذَابُ يَا أُمِّي... فِي كُلِّ يَوْمٍ نَفْقِدُ عَزِيزًا... إِلَى مَتَى وَنَحْنُ عَلَى هَذَا الحَالِ؟

الأُمُّ: لاَ تَيْأَسْ، وَلاَ تَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، يَا بُنَيَّ، يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَتَحَلَّى بِالشَّجَاعَةِ، وَالصَّبْرِ، وَالثَّبَاتِ، فَالثَّوْرَاتُ مَلِيئَةٌ بِالأَحْدَاثِ المُؤْلِمَةِ، وَالمُفَاجَآتِ المُرَوِّعَةِ، وَطَرِيقُ النَّصْرِ لَيْسَ بِالهَيِّنِ، يَا بُنَيَّ، وَلاَ بُدَّ لِنَيْلِ الحُرِّيَّةِ مِنْ دَفْعِ الثَّمَنِ.

وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَتَحَدَّثُ مَعَهَا إِذَا بِأَزِيزِ المِرْوَحِيَّاتِ، وَهَدِيرِ الشَّاحِنَاتِ، وَقَعْقَعَةِ الدَّبَّابَاتِ وَنُبَاحِ الكِلاَبِ يَمْلأُ الجَوَّ رَهْبَةً.

فَقُلْتُ: إِنَّهُمْ قَادِمُونَ، يَا أُمِّي، لَقَدْ جَاؤُوا لِيَنْتَقِمُوا مِنَّا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

الأُمُّ: هَؤُلاَءِ الْمُجْرِمُونَ، لاَ تَعْرِفُ قُلُوبُهُمْ الرَّحْمَةَ، تَمَالَكْ أَعْصَابَكَ، يَا بُنَيَّ، وَكُنْ شُجَاعًا، وَرَصِينًا... وَلاَ تَنْسَ الدُّعَاءَ، إِنَّهُ مَجَانِيقُ الضُّعَفَاءِ.

قَبْلَ بِدَايَةِ حَظْرِ التَّجَوُّلِ حَاصَرَ جَيْشُ الْعَدُوِّ الْحَيَّ بِدَبَّابَاتِهِ، وَمَدَافِعِهِ، وَانْتَشَرَ بَيْنَ أَزِقَّتِهِ بِكِلاَبِهِ الْمُرْعِبَةِ، يَخْبِطُ الأَبْوَابَ بِأَعْقَابِ الْبَنَادِقِ، وَيَرْكُلُهَا بِأَحْذِيَتِهِ الْغَلِيظَةِ، لِيَنْشُرَ الْهَلَعَ، وَيَزْرَعَ الرُّعْبَ فِي الْقُلُوبِ..

دَخَلْنَا بُيُوتَنَا، وَقَفَلْنَا الأَبْوَابَ، وَبَقِينَا نَنْتَظِرُ مَاذَا سَيَفْعَلُ الْعَدُوُّ بِنَا، وَأَلْسِنَتُنَا تَلْهَجُ بِالدُّعَاءِ رَاجِينَ مِنَ اللهِ أَنْ يُبْعِدَ عَنَّا بَطْشَهُمْ وَهَمَجِيَّتَهُمْ.

هَمَسْتُ فِي أُذُنِ أُمِّي بِصَوْتٍ مُرْتَجِفٍ: إِنَّ نُبَاحَ كِلاَبِهِمْ، وَوَقْعَ أَقْدَامِهِمْ يَقْتَرِبُ مِنْ بَابِنَا،

يَا أُمِّي.

رَدَّتْ أُمِّي: لاَ تَخَفْ، يَا وَلَدِي، ادْعُ اللهَ أَنْ يُبْعِدَهُمْ عَنَّا.

رَفَعْتُ كَفِّي إِلَى اللهِ، وَبَقِيتُ أَدْعُو، وَأَدْعُو، فَإِذَا بِالْحِجَارَةِ تَتَدَحْرَجُ مِنَ الْقَرْمِيدِ، فَهَمَسْتُ ثَانِيَةً فِي أُذُنِ أُمِّي: إِنَّهُمْ عَلَى الْقَرْمِيدِ، يَا أُمِّي.

الأُمُّ: هَؤُلاَءِ السَّفَلَةُ لاَ يَعْرِفُونَ الأَبْوَابَ، لاَ تَخَفْ، يَا حَبِيبِي، اقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ، وَمَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ...

فَإِذَا بِعَوِيلٍ وَصُرَاخٍ تَتَلاَعَبُ بِهِ الرِّيَاحُ، يَبْتَعِدُ تَارَةً وَيَقْتَرِبُ مَرَّةً أُخْرَى، فَأَصْغَيْتُ بِكُلِّ جَوَارِحِي لأَتَبَيَّنَهُ.

قُلْتُ: هَذَا عَوِيلٌ، وَصُرَاخُ امْرَأَةٍ، وَبَعْدَ قَلِيلٍ أَضَفْتُ: إِنَّهُ صَوْتُ خَالَتِي «عِيشَةَ»؟

الأُمُّ: هَؤُلاَءِ الْبَرَابِرَةُ لاَ يَعْتِقُونَ أَحَدًا...

المِسْكِينَةُ تُعَانِي مَرَضًا مُزْمِنًا... أَكْثِرْ مِنَ الدُّعَاءِ، يَا عَلِيّ، اطْلُبْ مِنَ اللهِ أَنْ يَلْطُفَ بِنَا جَمِيعًا، وَيُبْعِدَ عَنَّا هَؤُلاَءِ المُتَوَحِّشِينَ، المُتَعَطِّشِينَ لِلدِّمَاءِ، وَالمُتَلَذِّذِينَ بِتَعْذِيبِ الأَبْرِيَاءِ.

رَفَعْتُ كَفِّي ثَانِيَةً أَدْعُو اللهَ: يَا رَبِّ، اكْشِفْ عَنَّا هَذَا العَذَابَ، وَابْعِدْهُمْ عَنَّا.. يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ...

ثُمَّ الْتَفَتُّ إلى أُمِّي فَسَأَلْتُهَا: فَمَتَى يَأْتِي الفَرَجُ؟ وَنَحْيَا فِي أَمْنٍ وَهُدُوءٍ، وَسَلاَمٍ؛ لاَ تَفْتِيشَ، وَلاَ تَرْوِيعَ، وَلاَ مُرَاقَبَةَ، وَلاَ مُدَاهَمَاتٍ.

رَدَّتْ عَلَيَّ: سَيَأْتِي، يَا وَلَدِي، فَكُلَّمَا زَادَ العَدُوُّ فِي ظُلْمِهِ، وَطُغْيَانِهِ زَادَتِ الثَّوْرَةُ اشْتِعَالاً وَقُوَّةً؛ عِنْدَمَا تَشْتَدُّ الأَزْمَةُ يَقْتَرِبُ انْفِرَاجُهَا...

مَضَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ طَوِيلَةً طَوِيلَةً، ثَقِيلَةً وَرَهِيبَةً، بِتْنَا نَنْتَظِرُ شَرَّهُمُ المُسْتَطِيرَ.

وَعِنْدَمَا طَلَعَ النَّهَارُ، أَرْسَلَتْنِي أُمِّي لأَسْتَفْسِرَ عَنْ حَالِ خَالَتِي «عِيشَةَ»؛ فَرَغْمَ المَسَافَةِ القَرِيبَةِ بَيْنَنَا تَوَجَّبَ عَلَيَّ أَنْ أَسِيرَ عَبْرَ عِدَّةِ شَوَارِعَ لأَنَّ الطُّرُقَاتِ كَانَتْ مَقْطُوعَةً؛ طَوَّقَهَا العَدُوُّ بِالأَسْلاَكِ الشَّائِكَةِ لِيَفْصِلَ بَيْنَ الأَحْيَاءِ، وَيُبَاعِدَ بَيْنَ السُّكَّانِ؛ وَكَأَنَّنَا نَعِيشُ دَاخِلَ مُعْتَقَلٍ كَبِيرٍ.

كَانَتِ الشَّوَارِعُ مُوحِشَةً وَرَهِيبَةً، خَالِيَةً مِنَ المَارَّةِ لاَ تُشَاهَدُ سِوَى قَوَافِلَ مِنَ المِظَلِّيِّينَ، وَجُنُودِ السِّنِغَالِ، مَبْثُوثِينَ فِي الشَّوَارِعِ، وعَلَى الأَسْوَارِ، وَعَلَى سُقُوفِ البُيُوتِ، وَالمَحَلاَّتِ مُدَجَّجِينَ بِالأَسْلِحَةِ... شَاحِنَاتٌ وَسَيَّارَاتٌ مُتَرَاصَّةٌ، وَدَبَّابَاتٌ وَمَدَافِعُ مُصَوَّبَةٌ نَحْوَ الأَهَالِي، شَاهَدْتُ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الرِّجَالِ بِثِيَابِ النَّوْمِ مِنْ بَيْنِهِمْ زَوْجُ خَالَتِي بِقَمِيصِ النَّوْمِ... ثِيَابُهُمْ

مَبَلَّلَةٌ بِمَاءِ المَطَرِ، كَانُوا وَاقِفِينَ وَوُجُوهُهُمْ إلى الحَائِطِ، رَافِعِينَ أَيْدِيَهُمْ، وَفُوَّهَاتُ البَنَادِقِ مُوَجَّهَةٌ نَحْوَهُمْ، فَمَنْ حَاولَ مِنْهُمْ أَنْ يَلْتَفِتَ، أَوْ يَتَحَرَّكَ

يُزَجُّ بِهِ فِي المَرْكَبَةِ، وَيُؤْخَذُ إلى مَكَانٍ غَيْرِ مَعْلُومٍ، أَوْ يُفْرِغُونَ فِيهِ مُحْتَوَى رَشَّاشَاتِهِمْ.

تَسَمَّرْتُ فِي مَكَانِي، أَتَأَمَّلُ المَشْهَدَ، كَيْفَ يُذِلُّونَ وَيُهِينُونَ رِجَالاً ذَنْبُهُمْ أَنَّهُمْ يَنْشُدُونَ العِزَّةَ، وَالكَرَامَةَ، وَاسْتِرْجَاعَ وَطَنِهِمْ، وَلُغَتِهِمْ، وَدِينِهِمْ...

رَكَلَنِي جُنْدِيٌّ مِنَ المِظَلِّيِّينَ بِقَدَمِهِ، وَقَالَ: هَيَّا، سِرْ، ابْتَعِدْ مِنْ هُنَا يَا...

رُحْتُ أَحُثُّ الخُطَى نَحْوَ بَيْتِ خَالَتِي، وَسَطَ جَوٍّ مَشْحُونٍ بِالرُّعْبِ، وَالخَوْفِ إلى أَنْ وَصَلْتُ.

سَأَلَتْنِي الخَالَةُ بِقَلَقٍ وَتَعَجُّبٍ: مَا أَخْرَجَكَ فِي هَذَا الجَوِّ المَشْحُونِ، يَابُنَيَّ؟!

قُلْتُ لَهَا بِحُزْنٍ: قَضَيْنَا لَيْلَةً مُرْعِبَةً، وَقُلُوبُنَا مَشْغُولَةٌ بِكِ... مَا بِكِ، يَاخَالَتِي؟ وَمَا هَذِهِ الكَدَمَاتُ الَّتِي عَلَى وَجْهِكِ؟ يَبْدُو عَلَيْكِ آثَارُ

التَّعْذِيبِ؟

رَدَّتِ الخَالَةُ بِأَسًى وَأَلَمٍ: أَجَلْ، يَا بُنَيَّ، كَانَتْ لَيْلَةً لَيْلاَءَ، هَجَمُوا عَلَيْنَا مِنْ فَوْقِ الأَسْوَارِ دَخَلَ البَيْتَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الجُنُودِ، وَفَتَّشُوا الخِزَانَةَ، وَرَمَوْا مَا بِدَاخِلِهَا عَلَى الأَرْضِ؛ كَمَا تُشَاهِدُ، مَزَّقُوا الوَسَائِدَ وَالأَفْرِشَةَ بِخَنَاجِرِهِمْ، كَمَا رَمَوْا المُؤُونَةَ عَلَى الأَرْضِ، ثُمَّ رَكَلَ أَحَدُهُمُ المَهْدَ الَّذِي تَنَامُ فِيهِ حُورِيَّةُ وَنَصْرُ الدِّينِ، فَانْقَلَبَ المَهْدُ، فَوَقَعَتْ حُورِيَّةُ وَنَصْرُ الدِّينِ عَلَى الأَرْضِ يَبْكِيَانِ، فَكَادَ أَنْ يَرْفُسَهُمَا جُنْدِيٌّ بِرِجْلَيْهِ؛ ذَاكَ المُتَوَحِّشُ؟ فَلَمَّا وَثَبْتُ لآخُذَهُمَا، مَنَعَنِي وَصَفَعَنِي، وَضَرَبَنِي بِعَقِبِ البُنْدُقِيَّةِ، وَقَبْلَ خُرُوجِهِمْ أَطْلَقُوا ضَحِكَاتٍ عَالِيَةً كَالضِّبَاعِ الجَائِعَةِ، ثُمَّ اسْتَدَارَ قَائِدُهُمْ إِلَيَّ، فَنَتَرَ مِنْ

رَقَبَتِي سِلْسِلَةً ذَهَبِيَّةً، نَظَرَ إِلَيْهَا وَقَالَ: لَيْسَتْ سِلْسِلَةً ثَمِينَةً، وَلَكِنْ خَيْرٌ مِنْ لاَ شَيْءَ... أَخَذُوا خَالَكَ مُحَمَّدًا وَهُوَ فِي قَمِيصِ النَّوْمِ، فِي هَذَا البَرْدِ وَتَحْتَ هَذِهِ الأَمْطَارِ؛ هَا هُوَ النَّهَارُ قَدِ انْتَصَفَ، وَلَمْ يَظْهَرْ عَنْهُ أَيُّ خَبَرٍ لِحَدِّ السَّاعَةِ.

قُلْتُ لَهَا: قُلُوبُهُمْ قَاسِيَةٌ، يَا خَالَتِي... كَأَنَّهَا قُدَّتْ مِنْ حَجَرٍ... لاَ يَعْرِفُونَ الرَّحْمَةَ، إِنَّهُمْ أَشْرَارٌ بَرَابِرَةٌ، كَأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ طِينَةِ البَشَرِ، يَتَصَرَّفُونَ كَالوُحُوشِ الضَّارِيَةِ... عِنْدَمَا كُنْتُ فِي طَرِيقِي إِلَى هُنَا شَاهَدْتُ طَابُورًا مِنَ الرِّجَالِ، مِنْ بَيْنِهِمْ خَالِي مُحَمَّد وَاقِفِينَ وَوُجُوهُهُمْ قُبَالَةَ الحَائِطِ، رَافِعِينَ أَيْدِيهِمْ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، وَجُنُودُ الاحْتِلاَلِ خَلْفَهُمْ، يَتَفَرَّجُونَ مُتَلَذِّذِينَ بِإِهَانَتِهِمْ..

قَالَتْ خَالَتِي «عِيشَة»: إِنَّهُمْ طَغَوْا كَثِيرًا،

اسْتَعْمَلُوا كُلَّ الأَسَالِيبِ القَمْعِيَّةِ، لَكِنَّهَا لَمْ تُجْدِ شَيْئًا، فَكُلَّمَا زَادُوا فِي طُغْيَانِهِمْ وَتَعَسُّفِهِمْ، ازْدَادَ عَدَدُ الثُّوَّارِ.

قُلْتُ: أَجَلْ يَا خَالَتِي، الظُّلْمُ يُضَاعِفُ عَدَدَ الثُّوَّارِ، إِنَّهُمْ كَمَنْ يُضِيفُ الحَطَبَ إِلَى النَّارِ، فَتَزِيدُ الثَّوْرَةُ اشْتِعَالاً، وَقُوَّةً، وَصُمُودًا...

رَدَّتْ خَالَتِي «عِيشَةُ» بِمَا يُشْبِهُ السُّخْرِيَةَ: أَرَادُوا أَنْ يُخْمِدُوهَا بِعَدَدِهِمْ وعُدَّتِهِمْ، وَيَقْمَعُونَنَا بِهَمَجِيَّتِهِمْ، لَكِنْ هَيْهَاتَ... هَيْهَاتَ مِمَّا يَظُنُّونَ، فَالثَّوْرَةُ لَنْ تَخْمُدَ أَبَدًا إِلاَّ بِتَحْقِيقِ النَّصْرِ، وَطَرْدِهِمْ مِنَ الوَطَنِ خَاسِئِينَ مَدْحُورِينَ.

ثُمَّ أَخْرَجَتْ قِطْعَةَ خُبْزٍ، وَقَالَتْ: اسْمَعْنِي جَيِّدًا، يَا بُنَيَّ، وَكُنْ حَرِيصًا؛ هَذِهِ قِطْعَةُ خُبْزٍ، بِدَاخِلِهَا وَثِيقَةٌ هَامَّةٌ، امْسِكْهَا جَيِّدًا، وَهَذِهِ أَوْرَاقٌ نَقْدِيَّةٌ، ضَعْهَا بَيْنَ طَيَّاتِ ثَوْبِكَ، أُرِيدُكَ

أَنْ تُسَلِّمَهَا لِوَالِدَتِكَ.

خَرَجْتُ مِنْ بَيْتِهَا مُمْسِكًا بَيْنَ يَدَيَّ قِطْعَةَ الخُبْزِ، فلَمَّا مَرَرْتُ بِحَوَاجِزِ جُنُودِ الاحْتِلاَلِ ابْتَسَمْتُ فِي وُجُوهِهِمْ، وَحَيَّيْتُهُمْ بِأَدَبٍ وَاحْتِرَامٍ، فَلَمَّا دَخَلْتُ الكُوخَ، وَجَدْتُ أُمِّي فِي انْتِظَارِي؛ احْتَضَنَتْنِي فِي لَهْفَةٍ وَشَوْقٍ، فَسَلَّمْتُ لَهَا الأَمَانَةَ؛ أَخَذَتْ مِنِّي قِطْعَةَ الخُبْزِ، وَلِسَانُهَا يَلْهَجُ بِحَمْدِ اللهِ عَلَى سَلاَمَتِي وَسَلاَمَةِ مَا كُنْتُ أَحْمِلُهُ.

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: حَتَّى أَنْتِ، يا أُمِّي؟! وَحَتَّى أَنْتِ، يا خَالَتِي «عِيشَةُ»؟! لَقَدْ أَصْبَحَتِ الجَزَائِرُ كُلُّهَا بُرْكَانًا مِنَ الغَضَبِ، وَكُلُّهَا أَتُونًا يَتَأَجَّجُ.

...فَالأُمَّةُ كُلُّهَا ثَائِرَةٌ، بِرِجَالِهَا، وَنِسَائِهَا، بِصِغَارِهَا، وَكِبَارِهَا، رَافِضِينَ وُجُودَكِ، يَا فَرَنْسَا، لَقَدْ فَارَ التَّنُّورُ، وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ، آنَ الأَوَانُ لَكِ أَنْ تَرْحَلِي، يَا فَرَنْسَا، وَتَخْرُجِي مِنَ

الجَزَائِرِ كَمَا دَخَلْتِهَا.

وفي صَبَاحِ الغَدِ المُوَالِي الْتَقَيْتُ بِصَدِيقِي مُصْطَفَى، فَوَجَدْتُهُ مُتَذَمِّرًا، فَسَأَلْتُهُ: مَا بِكَ، يَا مُصْطَفَى؟

أجَابَنِي: الأَوْغَادُ، الأَوْغَادُ، يَا عَلِيّ، لَقَدْ أَعْلَنَ رَئِيسُهُمْ «جنرَال دُوغُول» في خِطَابِه: أنَّ فَرَنْسَا سَتَبْقَى في الجَزَائِرِ إلى الأَبَدِ...

وأَثْنَاءَ خِطَابِهِ قَالَ وَرَدَّدَ: إنّ الجَزَائِرَ فَرَنْسِيَّةٌ، وَأَهْلُهَا كُلُّهُمْ فَرَنْسِيُّونَ، وَتَحْيَا الجَزَائِرُ الفَرَنْسِيَّةُ.

فَقُلْتُ: لاَ تَحْمِلْ هَمًّا، يَا مُصْطَفَى، نَحْنُ سَائِرُونَ في طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ، والأُمَّةُ كُلُّهَا مُسْتَعِدَّةٌ لِلتَّضْحِيَةِ، مَا دُمْنَا مُتَّحِدِينَ، فَالنَّصْرُ آتٍ بِإِذْنِ الله...

...وَفِعْلاً ازْدَادَتِ الثَّوْرَةُ حِدَّةً وَشَرَاسَةً، يَا بُنَيَّتِي، فَتَصَاعَدَ النِضَالُ الجَمَاهِرِيُّ تَحْتَ قِيَادَةِ جَبْهَةِ التَّحْرِيرِ، وتَجَسَّدَ ذَلِكَ في مُظَاهَرَاتِ 11

ديسَمْبَر مِنْ سَنَةِ 1960م مِنْ أَوَاخِرِ أَيَّامِ فَصْلِ الخَرِيفِ، المُوَافِقِ لِيَوْمِ السَّبْتِ.

أَثْنَاءَ خُرُوجِي مِنَ المَدْرَسَةِ مَسَاءً، كَانَ الجَوُّ بَارِدًا، وَغَائِمًا... وَكُنْتُ أُسْرِعُ الخُطَى إلى البَيْتِ، فَلاَحَظْتُ وُجُومًا يَعْلُو وُجُوهَ الكِبَارِ... وَسَمِعْتُ هَمَسَاتٍ يَتَبَادَلُونَهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ... بَعْضُ المَتَاجِرِ وَالدَّكَاكِينِ أُغْلِقَتْ، رَغْمَ أَنَّ الوَقْتَ مَا زَالَ مُبَكِّرًا.

فَتَوَجَّسْتُ حُدُوثَ شَيْءٍ مَا، أَوْ سَيَحْدُثُ.

دَخَلْتُ البَيْتَ، فَوَجَدْتُ أُمِّي هِيَ الأُخْرَى في حَالَةِ قَلَقٍ، كَأَنَّهَا تَنْتَظِرُ حَدَثًا مُفَاجِئًا تَخْشَى عَوَاقِبَهُ... مَرَّتْ عَلَيَّ سَاعَاتٌ بَطِيئَةٌ وَأَنَا في حِيرَةٍ، مُتَسَائِلاً: مَا هَذَا الوُجُومُ؟ لِمَ أُغْلِقَتِ الدَّكَاكِينُ؟ مَا هَذَا الهَمْسُ المُتَبَادَلُ بَيْنَ الكِبَارِ؟

عِنْدَمَا أَشَارَتْ عَقَارِبُ السَّاعَةِ إلى السَّابِعَةِ

والنِّصْفِ مَساءً، كَانَ رَذاذُ المَطرِ يَنْزِلُ، وَالشَّوَارِعُ خَالِيَةٌ مِنَ المَارَّةِ، إلاَّ مِنْ بَعْضِ سَيَّارَاتِ «جِيبْ» العَسْكَرِيَّةِ الَّتِي كُنْتُ أَسْمَعُهَا تَمُرُّ مِنْ حِينٍ لآخَرَ بِسُرْعَةٍ تَنْهَبُ الأَرْضَ نَهْبًا.

أَرْسَلَتْنِي أُمِّي إلى إِحْدَى الجَارَاتِ الَّتِي مَعَنَا فِي الحَارَةِ لأَسْتَعِيرَ مِنْهَا غِرْبَالاً، فَلَمَّا خَرَجْتُ مِنَ المَنزِلِ سَمِعْتُ ضَوْضَاءَ، وَغَوْغَاءَ، تَأْتِي أَصْوَاتُهُمَا مِنْ بَعِيدٍ، حَاوَلْتُ أَنْ أَتَبَيَّنَهُمَا، فَلَمْ أَتَمَكَّنْ، أَخَذَا يَقْتَرِبَانِ مِنِّي شَيْئًا فَشَيْئًا. تَسَلَّقْتُ جِدَارًا ثُمَّ اعْتَلَيْتُه فَشَاهَدْتُ تَدَفُّقًا عَظِيمًا وَرَهِيبًا مِنَ المُتَظَاهِرِينَ، وَهُمْ يَحْمِلُونَ عِصِيًّا، وَزُجَاجَاتٍ وَأَدَوَاتٍ أُخْرَى، وَيَصِيحُونَ تَارَةً، وَيُهَلِّلُونَ وَيُكَبِّرُونَ تَارَةً أُخْرَى، أَعْقَبَهُ صُرَاخٌ وَدُخَانٌ وَنَارٌ وَنُبَاحُ الكِلاَبِ، وَطَلَقَاتٌ نَارِيَّةٌ.



الشَّارِعُ يَتَأَجَّجُ... إِنَّهَا انْتِفَاضَةٌ شَعْبِيَّةٌ...

لاَ أَتَذَكَّرُ كَيْفَ خَرَجْتُ مِنَ البَيْتِ، فِي لَمْحِ البَصَرِ وَجَدْتُ نَفْسِي وَسَطَ المُتَظَاهِرِينَ، أَخُوضُ مَعَهُمْ غِمَارَ الانْتِفَاضَةِ...

أَطْلَقْنَا حَنَاجِرَنَا بِاللُّغَتَيْنِ: العَرَبِيَّةِ وَالفَرَنْسِيَّةِ، مُعَبِّرِينَ عَنْ رَفْضِنَا للاسْتِعْمَارِ بِقَوْلِنَا: لاَ لِفَرَنْسَا... تَمُوتُ فَرَنْسَا، تَحْيَا الجَزَائِرُ مُسْلِمَةً، تَحْيَا الجَزَائِرُ حُرَّةً... الجَزَائِرُ لَنَا... أَطْلِقُوا سَرَاحَ قَادَتِنَا... نُرِيدُ فَرْحَات عَبَّاس رَئِيسَنَا... الله أَكْبَرُ... الله أَكْبَرُ...

كَانَتِ النِّسَاءُ يُزَغْرِدْنَ مِنْ أَعَالِي السُّطُوحِ، وَمِنَ النَّوَافِذِ، وَالشُّرُفَاتِ، فَتَزِيدُ زَغَارِيدُهُنَّ المُتَظَاهِرِينَ حَمَاسًا وَتَشْجِيعًا.

حَاصَرَتِ القُوَّاتُ الاسْتِدْمَارِيَّةُ الشَّوَارِعَ بِالمِدْفَعِيَّاتِ، وَالدَّبَّابَاتِ لِتَحُدَّ مِنْ عَدَدِ

المُتَظَاهِرِينَ، وَتُعَرْقِلَ تَحَرُّكَاتِهِمْ، وَلِتَحْمِيَ الأَحْيَاءَ الأُورُوبِيَّةَ مِنْ غَضَبِهِمْ، وَلَكِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يُجْدِ نَفْعًا؛ اسْتَوَتِ الحَيَاةُ وَالمَوْتُ عِنْدَنَا، فَكُنَّا نَقْفِزُ عَلَى فُوَّهَاتِ المَدَافِعِ، وَنَتَخَطَّاهَا ولاَ نُبَالِي. كَانَتِ الغَازَاتُ المُسِيلَةُ لِلدُّمُوعِ تَخْنُقُنَا، وَتَكَادُ تُعْمِي أَبْصَارَنَا، لَكِنَّهَا لَمْ تَثْنِنَا عَنْ مُوَاصَلَةِ المُظَاهَرَةِ... وَكُلَّمَا ازْدَادَ عَدَدُ الضَّحَايَا، ازْدَادَتِ المُظَاهَرَاتُ اشْتِعَالاً.

طَاشَ عَقْلُ الاسْتِدْمَارِ، فَلَمْ يُصَدِّقْ مَا كَانَ يَسْمَعُهُ، وَيُشَاهِدُهُ؛ وَاجَهَتْ قُوَّاتُهُ المُتَظَاهِرِينَ بِكُلِّ وَسَائِلِهَا الجَهَنَّمِيَّةِ، بِدُونِ تَمْيِيزٍ، فَسَقَطَ الكَثِيرُ مِنْهُمْ فِي مَيْدَانِ الشَّرَفِ. أُرِيقَتْ شَلاَّلاَتٌ مِنَ الدِّمَاءِ الزَّكِيَّةِ الطَّاهِرَةِ، وَسَالَتْ أَنْهَارٌ مِنَ الدُّمُوعِ. ارْتَوَتِ الأَرْضُ بِدَمِ الأَطْفَالِ، وَالنِّسَاءِ، وَالشُّيُوخِ، فِي العَدِيدِ مِنَ الأَحْيَاءِ... وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ

نَتَقَهْقَرْ.

قَبْلَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ دَخَلْنَا مَنَازِلَنَا، وَغَلَّقْنَا أَبْوَابَهَا، وَرُحْنَا نَعُدُّ شُهَدَاءَنَا وَجَرْحَانَا... وَنُوَاسِي أَحْزَانَنَا.

خَيَّمَ الهُدُوءُ على الشَّوَارِعِ، وَاسْتَمَرَّتْ قَطَرَاتُ المَطَرِ تَتَسَاقَطُ طَوَالَ اللَّيْلِ، عَلَى حُطَامِ السَّيَّارَاتِ، وَالزُّجَاجِ المُنْتَشِرِ، وَأَعْمِدَةِ الدُّخَانِ.

دَامَتِ المُظَاهَرَاتُ في بَعْضِ الأَحْيَاءِ أَيَّامًا عِدَّةً، فَكَانَتِ الحَصِيلَةُ ثَقِيلَةً. سَقَطَ الكَثِيرُ مِنْ أَبْنَاءِ الوَطَنِ، مِنْ بَيْنِهِمْ صَدِيقِي مُصْطَفَى، وَهُوَ في مُقْتَبَلِ العُمُرِ... وَخَالَتِي «عِيشَةَ» الَّتِي تَرَكَتْ وَرَاءَهَا يَتِيمَيْنِ: نَصْرَ الدِّينِ وحُورِيَّة، وزَوْجًا مَفْقُودًا...

مَا زَالَتْ صُورَةُ خَالَتِي «عِيشَةَ» في ذِهْنِي لَمْ تَبْرَحْ خَيَالِي إلى يَوْمِنَا هَذَا... سَقَطَتْ وَهِيَ في

عِزِّ شَبَابِهَا، كَانَتْ في طَلِيعَةِ المُتَظَاهِرِينَ في ذَلِكَ اليَوْمِ مُتَدَثِّرَةً بِمِلْحَفَتِهَا، كَانَتْ تَبْدُو كَالحَمَامَةِ البَيْضَاءِ، مُمْسِكَةً بِيَدِهَا اليُمْنَى العَلَمَ عَالِيًا، وَإلى جَانِبَيْهَا نَصْرُ الدِّينِ، وَحُورِيَّةُ. كَانَ عِنْدَهَا حَمَاسٌ شَدِيدٌ، وَانْدِفَاعٌ قَوِيٌّ، كَانَتْ تُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهَا: تَحْيَا الجَزَائِرُ.

أَفْرَغَ العَدُوُّ كُلَّ مَا كَانَ لَدَيْهِ مِنْ ذَخِيرَةٍ عَلَى المُتَظَاهِرِينَ، فَلَفَظَتْ خَالَتِي «عِيشَةُ» أَنْفَاسَهَا، وَهِيَ مُحْتَضِنَةٌ العَلَمَ الجَزَائِرِيَّ، الَّذِي خُضِّبَ بِدِمَائِهَا الزَّكِيَّةِ الطَّاهِرَةِ، بَعْدَمَا أَشْبَعَتْهُ قُبُلَاتٍ حَارَّةً وَهِيَ تُرَدِّدُ: سَأَمُوتُ، وَلَكِنْ يَبْقَى عَلَمُ بِلَادِي مَرْفُوعًا... وَتَعِيشُ الجَزَائِرُ حُرَّةً...

أَخَذْتُ حُورِيَّةَ، وَنَصْرَ الدِّينِ، وَرَجَعْتُ بِهِمَا إلى البَيْتِ.

وَفِي المَسَاءِ عِنْدَمَا خَيَّمَ الظَّلَامُ، خَرَجَ

مَصَّاصُو الدِّمَاءِ كَعَادَتِهِمْ، وَكَكُلِّ يَوْمٍ، يُحَاصِرُونَ الحَيَّ بآلِيَاتِهِمُ الجَهَنَّمِيَّةِ، وَيَشُنُّونَ غَارَاتٍ عَلَى البُيُوتِ، بَيْتًا بَيْتًا، يُثِيرُونَ الفَوْضَى، وَالهَلَعَ، يُخْرِجُونَ الشَّبَابَ مِنْ بُيُوتِهِمْ، وَيَزُجُّونَ بِهِمْ فِي الشَّاحِنَاتِ.

ازْدَادَ الضَّغْطُ عَلَيْنَا، فَأَصْبَحْنَا وَكَأَنَّنَا نَعِيشُ دَاخِلَ مُعْتَقَلٍ كَبِيرٍ، حَوَاجِزُ أَمْنِيَّةٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ، مُدَاهَمَاتٌ.. تَمْشِيطٌ..... دَوْرِيَّاتُ المُرَاقَبَةِ وَالتَّفْتِيشِ دَائِمَةٌ صَبَاحًا وَمَسَاءً، فِي البَيْتِ، فِي المَدْرَسَةِ، فِي الشَّارِعِ، لَمْ يَسْلَمْ حَتَّى تَلامِيذُ التَّعْلِيمِ الابْتِدَائِيِّ مِنْهَا. صَارَتِ الحَيَاةُ لاَ تُطَاقُ، وَهَذَا مَا زَادَ الطِّينَ بِلَّةً...

فَصَمَّمَ الجَمِيعُ عَلَى مُحَارَبَةِ العَدُوِّ، مَهْمَا كَلَّفَهُمْ ذَلِكَ مِنْ ثَمَنٍ، فَالمَوْتُ فِي مَيْدَانِ الشَّرَفِ أَهْوَنُ مِنْ حَيَاةِ الذُّلِّ وَالعُبُودِيَّةِ...

كَانَتْ هَذِهِ الفَتْرَةُ هَامَّةً، وَحَاسِمَةً، فِي حَرْبِ التَّحْرِيرِ، بِحَيْثُ أَصْبَحَ الشَّعْبُ الجَزَائِرِيّ فِي



مُوَاجَهَةٍ عَلاَنِيَّةٍ، ضِدَّ فَرَنْسَا الاسْتِدْمَارِيَّةِ.

سَكَتَ وَالِدِي، فَوَاصَلَتْ جَدَّتِي الحَدِيثَ قَائِلَةً: ...لاَ أَنْسَى –يَا بُنَيَّتِي، مَا حَيِيتُ– ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي زَارَتْنِي فِيهِ امْرَأَةٌ غَرِيبَةٌ فِي الْبَيْتِ، فَإِذَا بِي أَسْمَعُ دَقَّاتٍ خَفِيفَةً على البَابِ... فَتَحْتُ البَابَ، فَوَجَدْتُ شَابَّةً فِي زِيٍّ مُتَسَوِّلَةٍ، سَأَلَتْنِي عَنْ حَالِي وَحَالِ ابْنِي بِاحْتِرَاسٍ شَدِيدٍ، ثُمَّ سَلَّمَتْ لِي ظَرْفًا وَهِيَ تَقُولُ: هَذِهِ رِسَالَةٌ إِلَيْكَ مِنْ وَرَاءِ البَحْرِ، وفِي رَمْشَةِ عَيْنٍ تَوَارَتِ المَرْأَةُ عَنِّي. يَا إِلَهِي مَا العَمَلُ؟ مَنْ يَقْرَأُ لِيَ الرِّسَالَةَ؟ رِسَالَةٌ مِنْ وَرَاءِ البَحْرِ؟! مَنْ هُوَ صَاحِبُهَا؟ مَاذَا تَحْمِلُ بَيْنَ طَيَّاتِهَا؟... لاَ بُدَّ أَنَّهَا تَحْمِلُ سِرًّا خَطِيرًا فَحَامِلَتُهَا كَانَتْ حَذِرَةً كَمَنْ يَحْمِلُ قُنْبُلَةً... فِي الحِينِ تَبَادَرَ إِلَى ذِهْنِي أَنْ أَقْصِدَ شَيْخَ المَدْرَسَةِ، فَهُوَ الأَمِينُ الوَحِيدُ الَّذِي أَأْتَمِنُهُ عَلَى أَسْرَارِي، فَرُحْتُ فِي

الحِينِ أَحُثُّ الخُطَى نَحْوَ دَارِهِ، وَأَنَا مُتَسَائِلَةٌ: لِمَنْ تَكُونُ هَذِهِ الرِّسَالَةُ يَا تُرَى؟ أَهِيَ لأَحَدِ أَقَارِبِي؟ فَمَنْ هُوَ يَا تُرَى؟ فَعَائِلَتِي اسْتُشْهِدَ جُلُّ أَفْرَادِهَا، وَمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ نَزَحَ إِلَى المُدُنِ الكُبْرَى...

دَخَلْتُ دَارَ الشَّيْخِ، وَسَلَّمْتُ لَهُ الرِّسَالَةَ، فَفَضَّ الغِلاَفَ وَهُوَ يُتَمْتِمُ قَائِلاً: أَخْبَارُ الخَيْرِ، إِنْ شَاءَ اللهُ..

كَانَ الشَّيْخُ يَقْرَأُ بِصَمْتٍ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَلَهِّفَةً لِمَعْرِفَةِ مَنْ هُوَ صَاحِبُ الرِّسَالَةِ، فَإِذَا بِالدُّمُوعِ تَتَحَجَّرُ فِي مُقْلَتَيْهِ، وَهُوَ يُحَاوِلُ إِخْفَاءَهَا عَنِّي.

فَسَأَلْتُهُ مُسْتَغْرِبَةً: خَيْرًا، إِنْ شَاءَ اللهُ، يَا سَيِّدِي الشَّيْخ.

بَعْدَ صَمْتٍ أَجَابَ: وَأَيُّ خَيْرٍ، يَا أُخْتَاهُ؟ لَقَدِ اشْتَدَّتِ المِحَنُ، مَا عَسَانَا نَفْعَلُ... ثُمَّ قَالَ:

إِنَّ بَعْدَ العُسْرِ يُسْرًا، إِنْ شَاءَ اللهُ.

فَسَأَلْتُهُ ثَانِيَةً: مَنِ المُرَاسِلُ، يَا سَيِّدِي الشَّيْخُ؟

الشَّيْخُ: المُرَاسِلُ زَوْجُكِ السَّعِيد.

مَا إِنْ ذَكَرَ اسْمَهُ حَتَّى سَقَطْتُ عَلَى الأَرْضِ مَغْشِيًّا عَلَيَّ، فَاقِدَةَ الوَعْيِ، وَعِنْدَمَا اسْتَفَقْتُ مِنْ إِغْمَاءَتِي رُحْتُ أُحَدِّثُ نَفْسِي: زَوْجِي السَّعِيد حَيٌّ!... أَهُوَ حَيٌّ يُرْزَقُ؟... أَلَيْسَ فِي عِدَادِ الأَمْوَاتِ؟ هَذَا شَيْءٌ لاَ يُصَدَّقُ!... سَالَتِ الدُّمُوعُ مِنْ عَيْنَيَّ مِدْرَارًا، وَلَمْ أَتَمَالَكْ نَفْسِي، بَكَيْتُ كَثِيرًا، ثُمَّ مَسَحْتُ دُمُوعِي، وَسَأَلْتُ الشَّيْخَ: وَلَكِنْ، مَا الَّذِي أَبْكَاكَ، يَا سَيِّدِي الشَّيْخ؟

رَدَّ بِصَوْتٍ حَزِينٍ: إِنَّهُ يَقُولُ لَكِ، قَضَى سَنَوَاتٍ طَوِيلَةً فِي الزِّنْزَانَةِ، وَقَاسَى مَا لَمْ يَتَصَوَّرْهُ

العَقْلُ البَشَرِيّ مِنْ أَنْوَاعِ العَذَابِ، وَعِنْدَمَا سَاءَتْ حَالَتُهُ الصِّحِّيَّةُ، وَأَشْرَفَ عَلَى الهَلاَكِ، أُخِذَ إِلَى المُسْتَشْفَى، حَيْثَ تَلَقَّى العِلاَجَ، وَبَعْدَ ذَلِكَ أُودِعَ السِّجْنَ، مَعَ سُجَنَاءَ جُدُدٍ، نُقِلُوا مِنَ الجَزَائِرِ إِلَى فَرَنْسَا، فَعَرَفَ مِنْ بَعْضِهِمْ الكَثِيرَ مِنَ أَخْبَارِ الوَطَنِ، وَعَنْكِ، وَعَنِ ابْنِكُمَا عَلِيٍّ؛ لَقَدْ حَدَّثَهُ سَجِينٌ نُقِلَ مِنَ الجَزَائِرِ إِلَى فَرَنْسَا عما قَدَّمَهُ لَهُ عَلِيٌّ وصَدِيقُهُ مُصْطَفَى مِنْ مُسَاعَدَةٍ، بَعْدَمَا أُصِيبَ بِجُرُوحٍ أَثْنَاءَ قِيَامِهِ بِعَمَلِيَّةٍ فِدَائِيَّةٍ، وَهَذَا السَّجِينُ هُوَ الَّذِي دَلَّهُ عَلَى عُنْوَانِكُمَا فِي العَاصِمَةِ، وَيَدْعُو اللهَ أَنْ يَجْمَعَهُ بِكُمَا فَوْقَ أَرْضِ الجَزَائِرِ وَهِيَ حُرَّةٌ مُسْلِمَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ، وَسَوْفَ يَبْقَى يُرَاسِلُكُمْ كُلَّمَا وَجَدَ فُرْصَةً لِلكِتَابَةِ، وَيَدًا أَمِينَةً، تَنْقُلُ إِلَيْكُمْ رَسَائِلَهُ...

وَيَقُولُ فِي رِسَالَتِهِ: إِنَّ الأَوْضَاعَ فِي فَرَنْسَا

لاَ تَقِلُّ هَمَجِيَّةً وَوَحْشِيَّةً عَمَّا هِيَ عَلَيْهِ فِي الجَزَائِرِ، لَقَدِ اقْتَرَفَ أَعْدَاءُ الحَيَاةِ، وَالإِنْسَانِيَّةِ، وَالمُتَبَجِّحِينَ بِالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، وَحُقُوقِ الإِنْسَانِ، مَجْزَرَةً رَهِيبَةً يَوْمَ 17 أُكْتُوبَر مِنْ سَنَةِ 1961م عِنْدَمَا تَجَمَّعَ الجَزَائِرِيُّونَ فِي العَاصِمَةِ بَارِيس، يُطَالِبُونَ بِالجَزَائِرِ حُرَّةً... وَجَبْهَةِ التَّحْرِيرِ مُمَثِّلاً شَرْعِيًّا وَوَحِيدًا لِلشَّعْبِ، فَوَاجَهَتْهُمْ قُوَّاتُ البُولِيس بِهَمَجِيَّةٍ، وَوَحْشِيَّةٍ، فَاسْتُشْهِدَ المِئَاتُ مِنْهُمْ، وَاعْتُقِلَ مَا يَزِيدُ عَنْ الأَلْفِ، وَرُمِيَ بِالبَعْضِ مِنْهُمْ فِي نَهْرِ السِّينِ. يَقُولُ كَاتِبُ الرِّسَالَةِ:

إِنَّ هَذِهِ المَجْزَرَةَ تَكَادُ تُشْبِهُ فِي شَرَاسَتِهَا مَجْزَرَةَ 8 مَاي 1945م فِي الجَزَائِرِ، وَمَعَ ذَلِكَ نَحْنُ نَسِيرُ إِلَى الأَمَامِ، وَلَنْ نَتَرَاجَعَ حَتَّى النَّصْرِ، أَوْ الاسْتِشْهَادِ. وَفِي نِهَايَةِ الرِّسَالَةِ يَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ

تَحْرِقِيهَا...

شَكَرْتُ الشَّيْخَ، وَخَرَجْتُ مِنْ بَيْتِهِ أَحُثُّ الخُطَى نَحْوَ بَيْتِي لأَزُفَّ البُشْرَى لابْنِي عَلَيّ... تَمَلَّكَنِي إِحْسَاسٌ، وَشُعُورٌ غَرِيبَانِ... كُنْتُ سَعِيدَةً بِرِسَالَةِ زَوْجِي لِكَوْنِهِ حَيًّا... وَحَزِينَةً لِوَضْعِنَا، وَحَالِنَا، وَمَا يُكَابِدُهُ شَعْبُنَا دَاخِلَ وَخَارِجَ الوَطَنِ.

فَجْأَةً سَكَتَتِ الجَدَّةُ عَنِ الكَلاَمِ، وَالْتَزَمَتِ الصَّمْتَ، اعْتَرَاهَا حُزْنٌ عَمِيقٌ، وَكَانَتِ الدُّمُوعُ المُنْهَمِرَةُ مِنْ عَيْنَيْهَا، -وَحْدَهَا- تُفْصِحُ عَمَّا كَانَتْ تَشْعُرُ بِهِ مِنْ أَلَمٍ.

بَعْدَ بُرْهَةٍ مِنَ الصَّمْتِ وَاصَلَ عَلِيٌّ الحَدِيثَ قَائِلاً: الْتَقَيْتُ بِأُمِّي وَهِيَ خَارِجَةٌ مِنْ دَارِ الشَّيْخِ، فِي حَالَةِ هِسْتِيرْيَا؛ تَبْكِي وَتَضْحَكُ فِي آنٍ وَاحِدٍ، تَتَحَدَّثُ بِكَلاَمٍ غَيْرِ مَفْهُومٍ، حَاوَلْتُ أَنْ أَتَبَيَّنَ مَا تُرِيدُ قَوْلَهُ، فَلَمْ أَتَمَكَّنْ... وَصَلْنَا

إلى البَيْتِ فَتَمَدَّدَتْ أُمِّي عَلَى الفِرَاشِ وَهِيَ فِي شِبْهِ غَيْبُوبَةٍ، وَبَعْدَمَا أَخَذَتْ قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ قَالَتْ: أَتَدْرِي، يَا بُنَيَّ؟ ثُمَّ سَكَتَتْ، وَبَقِيَتْ مُدَّةً وَهِيَ وَاجِمَةٌ.

- مَاذَا يَا أُمِّي؟ تَكَلَّمِي قُولِي، مَا بِكِ... فَلَمْ تَتَمَكَّنْ حَتَّى مِنْ فَتْحِ شَفَتَيْهَا.

- أُمِّي، أُمِّي، تَكَلَّمِي...

لَقَدْ أَخْرَسَتْهَا المُفَاجَأَةُ، وَبَعْدَ لأْيٍ أَخْرَجَتْ مِنْ جَيْبِهَا الرِّسَالَةَ، وَسَلَّمَتْهَا لِي بِيَدٍ مُرْتَجِفَةٍ.

بُهِتُّ فِي بَادِئِ الأَمْرِ، ثُمَّ أَخَذْتُهَا، وَفَتَحْتُهَا، كَانَتِ الرِّسَالَةُ مَكْتُوبَةً بِالعَرَبِيَّةِ، وَرُحْتُ أَتَهَجَّى حُرُوفَهَا شَيْئًا فَشَيْئًا، إِلَى أَنْ أَنْهَيْتُ قِرَاءَتَهَا... فَأَصَابَنِي مَا أَصَابَ أُمِّي مِنْ ذُهُولٍ وَوُجُومٍ... كَانَتْ تِلْكَ الرِّسَالَةُ، أَوَّلَ رِسَالَةٍ وَآخِرَ رِسَالَةٍ.

كَامِيلْيَا: وَهَلْ مَاتَ جَدِّي فِي السِّجْنِ؟

فَهَزَّتِ الجَدَّةُ رَأْسَهَا بِالإِيجَابِ.

سَادَ شَيْءٌ مِنَ الصَّمْتِ الرَّهِيبِ، وَالحُزْنِ العَمِيقِ، ثُمَّ وَاصَلَتْ الجَدَّةُ حَدِيثَهَا قَائِلَةً: اسْتَمَرَّتِ الثَّوْرَةُ، دَاخِلَ الوَطَنِ وَخَارِجَهُ، عَقَدْنَا العَزْمَ عَلَى أَلاَّ نَتَرَاجَعَ عَمَّا عَزَمْنَا عَلَيْهِ، مَهْمَا أُوتِيَ الاسْتِعْمَارُ مِنْ وَحْشِيَّةٍ، وَمَهْمَا بَالَغَ فِي جَرَائِمِهِ، وَتَعْذِيبِهِ وَتَنْكِيلِهِ، فَالأُمَّةُ الجَزَائِرِيَّةُ لاَ تُرْهِبُهَا قُوَّةٌ، وَلاَ نَهْرُ السِّينِ، وَلاَ تَنَالُ مِنْ عَزِيمَتِهَا المَقَاصِلُ، ولاَ تُزَعْزِعُ إِرَادَتَهَا الطَّائِرَاتُ وَالدَّبَّابَاتُ، بَلْ يَزِيدُهَا ذَلِكَ صُمُودًا.

وَبِصَوْتٍ عَصَبِيٍّ وَانْفِعَالٍ شَدِيدٍ أَضَافَ: عَاهَدْنَا الشُّهَدَاءَ عَلَى أَلاَّ نَتَرَاجَعَ عَمَّا عَزَمْنَا عَلَيْهِ، وَكُلَّمَا اسْتُشْهِدَ شَهِيدٌ خَلَفَهُ عَشَرَاتُ المُجَاهِدِينَ.

حِينَهَا أَدْرَكَ العَدُوُّ أَنَّ عَدَدَ الثُّوَّارِ يَزْدَادُ

يَوْمًا بَعْدَ يَوْم، بَلْ هُمْ عَلَى قَدْرِ عَدَدِ نُفُوسِ الأُمَّةِ، وَلاَ يُمْكِنُ مُحَارَبَتُهُمْ. عِنْدَئِذٍ بَدَأَ يَدْعُو إلى الحِوَارِ وَالتَّفَاوُضِ، وَالمُسَاوَمَةِ، فَطَرَحَ أَثْنَاءَ التَّفَاوُضِ مُخَطَّطَ تَقْسِيمِ الجَزَائِرِ للاحْتِفَاظِ بِالصَّحْرَاءِ، وَهُوَ الأَمْرُ الَّذِي رَفَضَهُ قَادَةُ الثَّوْرَةِ وَالمُنَاضِلُونَ...

كَامِيلْيَا بِانْدِهَاش وَتَعَجُّب: مَاذَا؟ أَرَادَ أَنْ يَحْتَفِظَ بِالصَّحْرَاءِ؟ إِنَّهُ شَيْءٌ عَجِيبٌ!

رَدَّ قَائِلاً: أَجَلْ، يَا بُنَيَّتِي، ولَكِنْ أَبَتِ الأُمَّةُ الجَزَائِرِيَّةُ المُسَاوَمَةَ... وَأَبَتْ أَنْ تَتَخَلَّى عَنْ أَيِّ شِبْرٍ مِنْ أَرْضِهَا لِغَيْرِهَا؛ فَالجَزَائِرُ كُلُّهَا لَنَا، وَفَرَنْسَا عَدُوٌّ مُسْتَبِدٌّ، وَظَالِمٌ، لَنْ نَرْضَاهُ قَيِّمًا عَلَيْنَا، وَوُجُودُهُ غَيْرُ مَرْغُوبٍ فِيهِ، وأَنَّهُ دَخِيلٌ لاَ بُدَّ مِنْ طَرْدِهِ...

أَضَافَتْ جَدَّتِي: وَعِنْدَ ذَلِكَ ظَهَرَتْ رُدُودُ

فِعْلِ المُعَمِّرِينَ، الرَّافِضِينَ الاعْتِرَافَ بِالثَّوْرَةِ الجَزَائِرِيَّةِ، وَالمُنَاهِضِينَ لِسِيَاسَةِ «شَارْل دُوغُول»، وَالمُتَمَسِّكِينَ بِفِكْرَةِ «الجَزَائِر فَرَنْسِيَّةٌ»، وَتَبْقَى إلى الأَبَدِ فَرَنْسِيَّةً، وَذَلِكَ بِمُحَاوَلَةِ عَرْقَلَةِ مَسَارِ المُفَاوَضَاتِ، وَحَسْمَ القَضِيَّةِ الجَزَائِرِيَّةِ عَسْكَرِيًّا، فَدَبَّرُوا مُحَاوَلَةَ انْقِلاَبٍ عَسْكَرِيٍّ عَلَى الرَّئِيسِ الفَرَنْسِيِّ الَّذِي قَبِلَ التَّفَاوُضَ، مُعْتَبِرِينَ إِيَّاهُ مُجْرِمًا، وَخَائِنًا. وَعِنْدَمَا فَشِلُوا فِي الانْقِلاَبِ، فَرُّوا إِلَى إِسْبَانْيَا، فَاتَّخَذُوهَا قَاعِدَةً خَلْفِيَّةً لِتَنْظِيمِ صُفُوفِهِمْ، وَلِمُوَاجَهَةِ «دُوغُول» وَسِيَاسَتِهِ، وَالقَضَاءِ عَلَى الثَّوْرَةِ الجَزَائِرِيَّةِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُفْلِحُوا فِي ذَلِكَ، لأَنَّ جُذُورَ الثَّوْرَةِ كَانَتْ قَدْ تَعَمَّقَتْ، وَأَصْبَحَتْ مَوْجُودَةً فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَأَضْحَى مِنَ المُسْتَحِيلِ القَضَاءُ عَلَيْهَا.

وَمِنْ هُنَاكَ، وَفِي مَدِينَةِ «مَدْرِيد» بِالضَّبْطِ

وُلِدَتْ مُنَظَّمَةٌ إِرْهَابِيَّةٌ، أَسَّسَهَا القَادَةُ العَسْكَرِيُّونَ الَّذِينَ فَشِلُوا فِي الانْقِلاَبِ... تَرَأَّسَهَا الجِنِرَال «صَالُون»، تَحْمِلُ اسْمَ مُنَظَّمَةِ الجَيْشِ السِّرِّيِّ، (L'O.A.S) انْضَمَّ إِلَيْهَا دُعَاةُ «الجَزَائِر فَرَنْسِيَّة»، وَانْصَهَرَتْ فِي بَوْتَقَتِهَا مُخْتَلَفُ التَّنْظِيمَاتُ الإِجْرَامِيَّةُ، مِنْ حَرْكِيِّينَ، وَمُتَمَرِّدِينَ، وَمَجْمُوعَةٍ مُسَلَّحَةٍ مِنْ يَهُودِ الجَزَائِرِ، إلخ.. كَانَتْ هَذِهِ العِصَابَةُ المُنَظَّمَةُ تَعْتَرِضُ سَبِيلَ المُوَاطِنِينَ الجَزَائِرِيِّينَ لِتَغْدِرَ بِهِمْ، وَقَامَتْ بِعِدَّةِ عَمَلِيَّاتٍ تَرْهِيبِيَّةٍ، مِنْ قَتْلٍ، وَتَفْجِيرٍ ضِدَّ المُوَاطِنِينَ الجَزَائِرِيِّينَ. وَحَتَّى المُعَمِّرُونَ المُوَالُونَ لِسِيَاسَةِ «شَارْل دُوغُول» لَمْ يَسْلَمُوا مِنْ بَطْشِهَا، فَذَهَبَ ضَحِيَّتَهَا العَدِيدُ مِنَ الأَبْرِيَاءِ العُزَّلِ...

وَلَكِنَّهَا لَمْ تُفْلِحْ فِي ذَلِكَ، لأَنَّ جُذُورَ الثَّوْرَةِ كَانَتْ قَدْ تَعَمَّقَتْ، وَأَصْبَحَتْ مَوْجُودَةً فِي كُلِّ

مَكَانٍ، وَأَضْحَى مِنَ المُسْتَحِيلِ القَضَاءُ عَلَيْهَا، فَتَكَوَّنَتْ قَالَتِ الجَدَّةُ: اسْتَعْمَلَ الجَيْشُ السِّرِّيُّ كُلَّ طَاقَتِهِ الشَّيْطَانِيَّةِ؛ لَوْ كَانَ الجَمَادُ يَتَكَلَّمُ لَحَكَى كُلُّ شِبْرٍ مِنْ أَرْضِنَا عَنِ المَأْسَاةِ، وَالمُعَانَاةِ، الَّتِي شَاهَدَهَا.

لاَ أَنْسَى أَبَدًا تِلْكَ اللَّيَالِي الجَهَنَّمِيَّةَ الَّتِي كَانَ الخَوْفُ يَقُضُّ مَضَاجِعَنَا وَيُؤَرِّقُنَا إِلَى أَنْ يَطْلُعَ النَّهَارُ، كَانَ أَفْرَادٌ مِنْ عِصَابَاتِ الجَيْشِ السِّرِّيِّ (L'O.A.S) يَقْضُونَ لَيَالِيَهُمْ، وَهُمْ يَقْرَعُونَ بِالمَلاَعِقِ الحَدِيدِيَّةِ الزُّجَاجَاتِ، وَالطَّنْجَرَاتِ وَيَدُقُّونَ بِالمِهْرَاسِ وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ يُحْدِثُ صَوْتًا مُزْعِجًا... لِيُصْدِرُوا أَصْوَاتًا مُزْعِجَةً، وَيَتْبَعُ ذَلِكَ انْفِجَارَاتُ القَنَابِلِ، وَطَلَقَاتٌ نَارِيَّةٌ... فَنَرُدُّ عَلَيْهِمْ بِالزَّغَارِيدِ، وَالتَّهْلِيلِ، لِنَقُولَ لَهُمْ: إِنَّنَا هُنَا، ارْحَلُوا، غُورُوا عَنَّا، هَذَا وَطَنُنَا... يَا

مُجْرِمِينَ... يَا القَتَلَة.

اسْتَمَرَّ الحَالُ عَلَى هَذَا الوَضْعِ المُؤْلِمِ؛ مُعَانَاةٌ فِي النَّهَارِ، وَأَرَقٌ فِي اللَّيْلِ إلى غَايَةِ 19 مَارِس 1962م؛ اليَوْمُ الَّذِي أُعْلِنَ فِيهِ وَقْفُ إِطْلَاقِ النَّارِ... كَانَ هَذَا اليَوْمُ بِالذَّاتِ يَوْمًا مَشْهُودًا، لَا يُنْسَى... فَقَدَ المُسْتَوْطِنُونَ فِيهِ أَعْصَابَهُمْ، فَحَوَّلُوا الجَزَائِرَ العَاصِمَةَ وبَقِيَّةَ المُدُنِ إلى أَتُونٍ يَتَأَجَّجُ...

خِلَالَ الفَتْرَةِ أَيْ مَا بَيْنَ سَنَةِ 1960م وَسَنَةِ 1962م اسْتَنْفَذَ الجَيْشُ السِّرِّيُّ كُلَّ طَاقَاتِهِ الجَهَنَّمِيَّةِ. لَوْ يُسَجِّلُ المُؤَرِّخُ مَا جَرَى فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ السَّوْدَاءِ لِوَحْدِهَا لَنَفِذَ كُلُّ الحِبْرِ، وَالوَرَقِ، وَلَنْ يَسْتَوْفِيَ قَيْدَ أُنْمُلَةٍ مَا جَرَى، وَمَا عَانَتْهُ الأُمَّةُ الجَزَائِرِيَّةُ مِنَ الأَسَالِيبِ الجَهَنَّمِيَّةِ، وَالوَحْشِيَّةِ...

خَرَجَ الاسْتِدْمَارُ مِنَ الجَزَائِرِ يَجُرُّ أَذْيَالَ الخَيْبَةِ

وَالهَزِيمَةِ بَعْدَ 132 سَنَةً مِنَ العُبُودِيَّةِ... اسْتِعْمَارٌ شَرِسٌ هَمَجِيٌّ حَقُودٌ ظَالِمٌ.

كَامِيلْيَا: صَدَقَ مَنْ قَالَ: الاسْتِقْلَالُ يُنْتَزَعُ مِنْ مُغْتَصِبِيهِ، وَلَا يُوهَبُ مِنْهُ.

عَلِيّ: أَجَلْ، يَا بُنَيَّتِي، مَا أُخِذَ بِالقُوَّةِ، لَا يُسْتَرْجَعُ إلاَّ بِالقُوَّةِ، هَكَذَا يَا بُنَيَّتِي انْتَزَعْنَاهُ مِنْهُ، بِفَضْلِ ثَوْرَةِ نُوفَمْبَرَ الَّتِي دَامَتْ سَبْعَ سَنَوَاتٍ وَنِصْفَ سَنَةٍ؛ الَّتِي كَانَتْ تَتْوِيجًا لِلثَّوْرَاتِ الشَّعْبِيَّةِ الَّتِي سَبَقَتْهَا... لَقَدْ كَانَ الثَّمَنُ بَاهِظًا؛ مِلْيُونٌ وَنِصْفُ مِلْيُونِ شَهِيدٍ، وآلَافُ الأَرَامِلِ فِي عُنْفُوَانِ الشَّبَابِ، وَيَتَامَى، وَثَكَالَى وَمَعْطُوبُونَ، نَاهِيكَ عَنِ الأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ وَالعَقْلِيَّةِ... وَالخَسَائِرِ المَادِّيَّةِ... مُدُنٌ مُخَرَّبَةٌ، قُرًى مُدَمَّرَةٌ، حُقُولٌ وَغَابَاتٌ مَحْرُوقَةٌ بِالنَّابَالْمِ، لَمْ يَسْلَمْ شَيْءٌ مِنْ هَمَجِيَّتِهِ.

أَحْرَقَ الكَثِيرَ مِنَ المُؤَسَّسَاتِ، مِنْهَا مَكْتَبَةُ الجَامِعَةِ المَرْكَزِيَّةِ، وَدَارُ الإِذَاعَةِ وَالتِّلِفزْيُونِ، وَهَدَّمَ الكَثِيرَ مِنَ المَرَاكِزِ الصِّحِيَّةِ وَالبَرِيدِ، وَخَرَّبَ المَصَانِعَ، وَنَهَبَ الأَمْوَالَ المُودَعَةَ في البُنُوكِ، لَمْ يَنْجُ شِبْرٌ مِنْ أَرْضِ الجَزَائِرِ.

فَجْأَةً أَشْرَقَ وَجْهُ الجَدَّةِ، وَظَهَرَتْ عَلَى شَفَتَيْهَا ابْتِسَامَةٌ عَرِيضَةٌ وَقَالَتْ: وَفي يَوْمِ 5 جويلية أَشْرَقَتْ شَمْسُ الحُرِّيَّةِ عَلَى كُلِّ رُبُوعِ الوَطَنِ، وَخَرَجَ الشَّعْبُ الجَزَائِرِيُّ إلى الشَّوَارِعِ، يُعَبِّرُ عَنْ فَرْحَتِهِ، فَكَانَ المَشْهَدُ مَهِيبًا رَائِعًا اسْتَعْصَى عَلَيَّ وَصْفُهُ.

فُتِحَتْ أَبْوَابُ السُّجُونِ فَخَرَجَ السُّجَنَاءُ، وَدُمُوعُ الفَرَحِ تَكَادُ تَخْنُقُهُمْ، وَنَزَلَ الثُّوَّارُ مِنْ مَعَاقِلِهِمْ فَخُورِينَ بِانْتِصَارِهِمْ، مَذْهُولِينَ غَيْرَ مُصَدِّقِينَ مَا يَسْمَعُونَ وَمَا يُشَاهِدُونَ، وَعَمَّتِ



الفَرْحَةُ كُلَّ أَرْجَاءِ الوَطَنِ، وَكُلَّ النَّاسِ، حَتَّى العَائِلاَتِ الَّتِي فَقَدَتْ أَبْنَاءَهَا، وَذَوِيهَا، وَأَعِزَّاءَهَا... فَفَرْحَةُ النَّصْرِ، وَنَشْوَتُهُ كَانَتْ لاَ تُوصَفُ، وَلاَ تُضَاهِيهَا فَرْحَةٌ، فَاقَتْ كُلَّ المَشَاعِرِ؛ رَقَصَ الجَمِيعُ، وَحَتَّى الشُّيُوخُ لَمْ يَمْنَعْهُمْ وَقَارُهُمْ مِنَ الرَّقْصِ، الأُمَّةُ كُلُّهَا فِي حَالَةِ هِسْتِيرْيَا...

أَضَافَ عَلِيٌّ: خَرَجَتِ الأُمَّةُ الجَزَائِرِيَّةُ، مِنَ الجِهَادِ الأَصْغَرِ، إِلَى الجِهَادِ الأَكْبَرِ، وَمَسَحَتْ دُمُوعَهَا وَضَمَّدَتْ جِرَاحَهَا، وَشَمَّرَتْ عَنْ سَوَاعِدِهَا... فَكَانَتْ أَغْلَبِيَّةُ الشَّعْبِ، يَا بُنَيَّتِي جَاهِلَةً، أُمِّيَّةً، وَلَكِنْ كَانَتْ لَهَا إِرَادَةٌ قَوِيَّةٌ، وَوَطَنِيَّةٌ صَادِقَةٌ، لاَ تَعْرِفُ المُسْتَحِيلَ، جِيلُنَا جِيلٌ عِصَامِيٌّ قَدَّمَ مَا عِنْدَهُ بِحُبٍّ، وَبِإِخْلاَصٍ، وَبِتَفَانٍ، وَإِتْقَانٍ...

فُتِحَتِ المَدَارِسُ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، اسْتُرْجِعَتِ المَسَاجِدُ الَّتِي حُوِّلَتْ إِلَى كَنَائِسَ، وَبَعْضُ الثُّكُنَاتِ إِلَى مُؤَسَّسَاتٍ تَعْلِيمِيَّةٍ...

قَالَتِ الجَدَّةُ: فَوَاصَلَ وَالِدُكِ دِرَاسَتَهُ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، حَتَّى حَصَلَ عَلَى شَهَادَةٍ عُلْيَا، فَأَصْبَحَ إِطَارًا مُحْتَرَمًا، وَبَعْدَ ذَلِكَ تَزَوَّجَ وَأَنْجَبَ بَنِينَ وَبَنَاتٍ، سَمَّى أَبْنَاءَهُ: «عِيشَةَ»، وَسَعِيدًا، وَأَحْمَدَ، وَمُصْطَفَى؛ نَشَأُوا فِي كَنَفِهِ لاَ يَنْقُصُهُمْ شَيْءٌ، طُفُولَةٌ هَنِيئَةٌ، سَعِيدَةٌ، مَرِحَةٌ، خَالِيَةٌ مِنَ الرُّعْبِ، وَالخَوْفِ، وَمِنَ الفَقْرِ وَالحَاجَةِ، وَزَاوَلُوا دِرَاسَتَهُمْ بِنِظَامٍ، وَاسْتِمْرَارٍ، إِلَى أَنْ كَبُرُوا، وَتَخَرَّجُوا.. فَصَارَ مُصْطَفَى مُهَنْدِسًا مَاهِرًا؛ يَبْنِي، وَيُشَيِّدُ، وَسَعِيدٌ إِمَامًا وَرِعًا تَقِيًّا؛ يُحَارِبُ مُخَلَّفَاتِ الجَهْلِ، وَيَدْعُو إِلَى المَحَبَّةِ وَالتَّآخِي، وَالتَّفَانِي فِي العَمَلِ، فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالوَطَنِ، وَعَائِشَةُ مُعَلِّمَةٌ، تُعَلِّمُ، وَتُرَبِّي النَّشْءَ عَلَى الفَضِيلَةِ وَحُسْنِ الخُلُقِ، وَتَغْرِسُ فِي نُفُوسِهِمُ المَبَادِئَ السَّامِيَةَ، وَالأَخْلاَقَ الفَاضِلَةَ...

كَامِيلِيَا: وَأَنَا، يَا جَدَّتِي، لِمَاذَا لَمْ تَذْكُرِي اسْمِي ضِمْنَهُمْ؟

عَانَقَتِ الجَدَّةُ حَفِيدَتَها كاميليا وَهِيَ تَعْتَذِرُ لَهَا عَنْ هَفْوَتِهَا: عَفْوًا، يَا حَبِيبَتِي، يَا رَمْزَ الهَنَاءِ، وَالسَّعَادَةِ، سَمَّيْنَاكِ، يَا عَزِيزَتِي، كاميليا تَيَمُّنًا، لِتَعِيشَ الجَزَائِرُ كَوَرْدَةِ الكاميليا، رَمْزِ الحَيَاةِ، وَالمَحَبَّةِ، وَالجَمَالِ.

كاميليا مُسْتَغْرِبَةً: وَلَكِنْ، لِمَاذَا تَدْمَعُ عَيْنُ أَبِي، كُلَّمَا جَاءَ نُوفَمْبَرُ؟

الجَدَّةُ: لاَ تَنْسَيْ، يَا حَبِيبَتِي، أَنَّ الحَيَاةَ ذِكْرَيَاتٌ، وَلاَسِيَّمَا ذِكْرَيَاتُ الطُّفُولَةِ، فَجِيلُ نُوفَمْبَرَ طُفُولَتُهُ حَزِينَةٌ، مَصْدُومَةٌ، مَلِيئَةٌ بِالذِّكْرَيَاتِ الأَلِيمَةِ، وَالمُرَوِّعَةِ؛ فَكُلَّمَا جَاءَ نُوفَمْبَرُ، يَتَذَكَّرُ وَالِدُكِ تِلْكَ السِّنِينَ المُرَّةَ، فَتَطُوفُ بِذِهْنِهِ صُورَةُ صَدِيقِهِ مُصْطَفَى الَّذِي حُرِمَ مِنْ أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ، فِي صِغَرِهِ وَمِنَ الطُّفُولَةِ الهَنِيئَةِ، وَيَتَذَكَّرُ وَالِدَهُ الَّذِي قَضَى عُمُرَهُ فِي السِّجْنِ، إِلَى أَنْ قَضَى نَحْبَهُ فِيهِ، وَخَالَتَهُ «عِيشَةَ» الَّتِي تَرَكَتْ يَتِيمَيْنِ، وَزَوْجًا مَفْقُودًا، فَتَدْمَعُ

عَيْنَاهُ لِتِلْكَ الذِّكْرَيَاتِ الحَزِينَةِ.

رَبَّتَ عَلِيٌّ على كَتِفِ أُمِّهِ وَهُوَ يَقُولُ: مَا أَعْظَمَكِ يَا لَيْلَةَ نُوفَمْبر، لَمْ وَلَنْ أَنْسَى أَبَدًا تِلْكَ اللَّيْلَةَ الرَّهِيبَةَ، يَا أُمِّي، وَأَنْتِ تُهَدِّئِينَ مِنْ رَوْعِي وَتَقُولِينَ لِيَ: ابْشِرْ، يَا بُنَيَّ، إِنَّهَا لَيْلَةٌ مُبَارَكَةٌ، سَيَظْهَرُ الحَقُّ، وَيَزْهَقُ البَاطِلُ، يَوْمَئِذٍ لَمْ أَفْهَمْ شَيْئًا مِمَّا كُنْتِ تَقُولِينَهُ... حَمْدًا لله، لَقَدْ ظَهَرَ الحَقُّ، وَزَهَقَ البَاطِلُ.

لَوْلاَ نُوفَمْبَرُ مَا أَشْرَقَتْ شَمْسُ الحُرِّيَّةِ عَلَى الجَزَائِرِ فِي يَوْمِ 5 جويلية.

لَوْلاَ نُوفَمْبَرُ مَا أَصْبَحَ مُصْطَفَى طَبِيبًا، وَسَعِيدٌ إِمَامًا، وَأَحْمَدُ مُهَنْدِسًا وعَائِشَةُ مُعَلِّمَةً، وَأَنْتِ، يَا حَبِيبَتِي، عَلَى وَشْكِ دُخُولِكِ الجَامِعَةَ.

لَوْلاَ نُوفَمْبَرُ، مَا دَرَسْتُمْ وَمَا تَعَلَّمْتُمْ.

عَاشَتِ الجَزَائِرُ، حُرَّةً، مُسْتَقِلَّةً، وَمُزْدَهِرَةً.

كاميليا: شُكْرًا لَكِ، يَا جَدَّتِي، وَشُكْرًا لَكَ، يَا

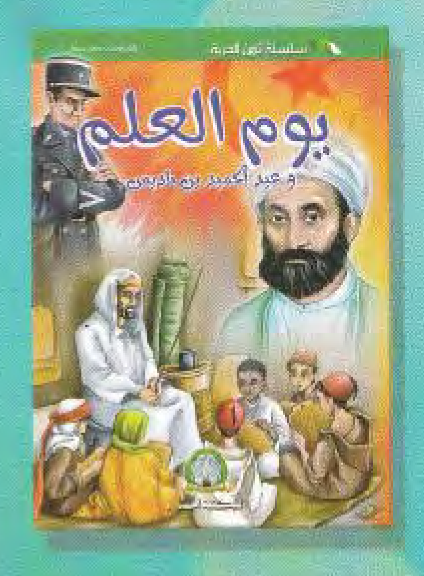
أَبِي، عَلَى هَذِهِ الحِكَايَةِ؛ سَأَحْتَفِظُ بِهَا فِي ذَاكِرَتِي، وَسَأَرْوِيهَا للأَجْيَالِ المُقْبِلَةِ، فَالتَّارِيخُ ذِكْرَيَاتٌ، وَعِبَرٌ وَدُرُوسٌ مِنَ السَّابِقِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْتَبِرَ، قَالَ أَحَدُ الشُّعَرَاءِ:

اقْرَؤُوا التَّـارِيخَ؛ إِذْ فِيهِ العِبَرُ
ضَـلَّ قَوْمٌ لَيْسَ يَدْرُونَ الخَبَرَ

رَحِمَ الله كُلَّ الَّذِينَ اسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ الله وَالوَطَنِ وفي سَبِيلِ العِزَّةِ والكَرَامَةِ... المَجْدُ وَالخُلُودُ لِشُهَدَائِنَا الأَبْرَارُ.

دُمْتَ يَا عَلَمُ، يَا رَمْزَ كِفَاحِنَا، وَيَا رَمْزَ جِهَادِنَا عَالِيًا مُرَفْرِعًا فَوْقَ رُؤُوسِنَا. عَاشَتِ الجَزَائِرُ حُرَّةً مُسْتَقِلَّةً، وَعَاشَ الشَّعْبُ تَحْتَ رَايَةٍ وَاحِدَةٍ.









المكتبة الخضراء
للطباعة و النشر و التوزيع
1 شارع الزواوة الشراقة الجزائر

E-mail:contact@bverte.net/ www.bverte.net

9 789947 253090